وزارة الثقافة
المختار من التراث العربي
« ٦١ »

من كتاب

الأشباه والنظائر

من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين

للخالديين
أبي عثمان سعيد بن هاشم المتوفى نحو سنة ٤٠٠هـ
وأبي بكر محمد بن هاشم المتوفى سنة ٣٨٠هـ

اختار النصوص وعلق عليها
الدكتور محمد علي دقة

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٥

من كتاب الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين/ أبو عثمان سعيد بن هاشم، أبو بكر محمد بن هاشم، اختار النصوص وعلق عليها محمد علي دقة . - دمشق: وزارة الثقافة ، ١٩٩٥ . - ١٠٧ ص ؛ ٢٠سم . -
المختار من التراث العربي: ٦١).

١- ٨١١٫٠٠٨ خ ا ل م٢ - العنوان ٣- الخالدي
٤- الخالدي ٥ - دقة ٦- السلسلة
مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٩ / ١ / ١٩٩٥

من كتاب
الأشباه والنظائر

المقدمة

هذا كتاب في المختار من «الأشباه والنظائر»، واختيارُ المرء صورةٌ من عقله وذوقه، سواء أكان اختياراً لكتاب أم لنصوص منه، والاختيار قديم عمد إليه الأجداد في تآليفهم وتصانيفهم، فالمبرد اختار من عيون الأدب والأشعار والأخبار ما أودعه كتابه الموسوم بالكامل، وكذلك فعل القالي في الأمالي، وأبو تمام والبحتري في الحماستين، وقد قيل عن أبي تمام إنه كان في حماسته أشعر منه في شعره.

وكتاب الأشباه والنظائر، وإن كان نقداً تطبيقياً تناول فيه المؤلفان قضية السرقات الأدبية، هو اختيار لم يجمع فيه المؤلفان الأشباه والنظائر جميعها، وإنما اختارا منها ما راق لهما ونم عن ذوقهما الأدبي الرفيع.

وقد سَعَيْتُ جاهداً في اختياري نصوصاً من «الأشباه» أَلاَّ أُحَكِّمَ الذوقَ الخاصَّ، عملاً بوصية الأخ الدكتور عدنان درويش، ليكون المختارُ صورةً دقيقةً من الكتاب الأم. ولكنني أعترف أنني أخفقت بعض الإخفاق في هذه المهمة، وهل بإمكان المرء أن يتخلى عن ذوقه في اختياره؟. ومن أمارات هذا الإخفاق أن الخالديين أكثرا من الأشباه والنظائر في معاني الغزل وصُوَره، ووافق ذلك هوىً في النفس، فتبسَّطْتُ في اختيار هذه الصور والمعاني، وأقلَلْتُ من النظائر في معاني الهجاء وصفة الناقة والفلَوات، ووافق ذلك هوىً في النفس فقبضتُ بعضَ القبض في اختيار هذه النصوص.

لذلك جاء المختار من الكتاب وقد ازداد فيه طُغْيان أشباهٍ على أشباه ونظَائرَ على نَظائر هي أصلاً طاغيةٌ في الكتاب الأم.

وقد يشفع لاختياري هذا أنني أحد أبناء هذا العصر مما يجعل المختار أقرب إلى نفس القارئ المعاصر.

المؤلفان

أبو عثمان سعيد وأبو بكر محمد ابنا هاشم بن وَعْلة بن عُرام بن يزيد بن عبد الله بن عبد منبه بن يثربي بن عبد السلام بن خالد بن عبد منبه [1]، بعض بني عبد القيس [2]. وهما من أهل الخالدية، وهي قرية من أعمال الموصل، ونسبتهما إليها، وقيل نسبتهما إلى جدهما خالد بن عبد منبه [3].

وهما أديبان شاعران من أدباء القرن الرابع الهجري، وصفهما ياقوت بأنهما «أديبا البصرة وشاعراها في وقتهما» [4]. ولا نعرف تاريخ ولادتيهما. أما وفاة أبي بكر وهو أكبرهما سناً، كانت سنة ٣٨٠هـ، ووفاة أبي عثمان في حدود ٤٠٠هـ [5]، وذكر ياقوت أن وفاته كانت سنة ٣٧١هـ [6]. ولا يصح ذلك لأن أبا عثمان صنع شعره وشعر أخيه قبل موته [7]، مما يدل على أن موته كان متأخراً عن موت أخيه.

نزل الخالديان بغداد طلاباً للعلم فأخذا عن علماء العصر كابن دريد (ت٣٢١هـ)، والصولي (٣٢٥هـ)، وجحظة (٣٢٤هـ)، وابن الخياط النحوي (٣٢٠هـ)، ثم ترددا على مجالس الوزراء وكبار رجال الدولة، ثم اتصلا بسيف الدولة الحمداني، فصارا من خواص شعرائه وفي مقدمة ندمائه وولاهما خزانة كتبه، وحظيا منه بالهدايا والأموال [8].

وكانا على اتصال وثيق بالوزير المهلبي ببغداد، وقويت هذه الصلة

(١) معجم البلدان: (الخالدية)
(٢) معجم الأدباء ١١: ٢٠٨. ط دار المأمون.
(٣) الأعلام ٣: ١٥٦، والتاج (خلد)
(٤) معجم الأدباء ١١: ٢٠٨.
(٥) فوات الوفيات ١: ١٧٢.
(٦) معجم الأدباء ١١: ٢٠٩.
(٧) المصدر السابق.
(٨) الأعلام ٧: ٢٥٣.

وتوثقت عراها بعد أن تسلم أبو اسحاق الصابي ديوان الرسائل للمهلبي، وكان الصابي شديد الإعجاب بالخالديين، يحفظ جانبهما ويناصرهما على خصمهما السري الرفاء الشاعر، مما أدى إلى رجوعهما إلى بغداد قبل وفاة المهلبي. وذكر المعري أنهما فارقا سيف الدولة على حد مغاضبة[1]. ولا نعرف شيئاً من أخبارهما بعد موت الوزير المهلبي.

وقد اشتهر الخالديان بسعة الرواية وكثرة الحفظ، وقد تعجب ابن النديم من ذلك، فقال: «قال لي الخالدي، وقد تعجبت من كثرة حفظه: أنا أحفظ ألف سفر كل سفر مائة ورقة»[2].

ولعل أعجب ما في أخبارهما اشتراكهما التام في حياتهما الأدبية، من شعر ورواية وتصنيف، حتى قال فيهما الثعالبي: «إنه كان يجمعهما من أخوة الأدب مثل ما كان ينظمهما من أخوة النسب، فهما في الموافقة والمساعدة يحييان بروح واحدة، ويشتركان في قرض الشعر وينفردان، ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان»[3].

وكان هذا الأمر موضع استغراب المعري إذ قال: «ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلا في أشياء قليلة وهذا متعذر في ولد آدم، إذ كانت الجبلة على الخلاف وقلة الموافقة، فأما أن يعمل الرجل شيئاً من كتاب ثم يتمه الآخر فهو أسوغ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان»[4].

ومن أبرز أخبارهما ما اتهما به من سرقة أشعار الآخرين، إذ كان السري الرفاء يدعي عليهما سرقة شعره وشعر غيره، ويهجوهما بذلك، ومنه قوله:

ولقد حميتُ الشعر، وهو بمعشر ... رَقَمٌ سوى الأسماء والألقابِ
وضربت عنه المدَّعين، وإنَّما ... عن جودة الآداب كان ضرابي
فغدت نبيط الخالدية تدَّعي ... شعري، وترفُل في حَبِير ثيابي[5]

(١) رسالة الغفران، ت كيلاني: ٢٩.
(٢) الفهرست: ١٦٩.
(٣) يتيمة الدهر ١: ٥٠٧.
(٤) رسالة الغفران: ٢٩-٣٠.
(٥) معجم البلدان (الخالدية). والرَّقم: خزّ موشّى.

ووصفهما ابن النديم بأنهما «كانا إذا استحسنا شيئاً غصباه صاحبه حياً كان أو ميتاً لا عجزاً منهما عن قول الشعر ولكن كذا كان طبعهما»[1]. أما ياقوت فرأى أن كلام ابن النديم هذا فيه موافقة للسري الرفّاء أو مجاراة له، وأن ادعاء السري مبعثه الغيرة والتضاغن الذي يكون بين المتعاصرين، فقال: «وكان بينهما وبين السري الرفاء الموصلي ما يكون بين المتعاصرين من التغاير والتضاغن، فكان يدعي عليهما سرقة شعره وشعر غيره ويدس شعرهما في ديوان كشاجم ليثبت مُدَّعاه»[2].

ولعل مما يرجح رأي ياقوت فيهما أننا لا نعرف أحداً شهد عليهما بسرقة أشعار الآخرين غير ابن النديم. أما السري الرفاء فدافعه إلى ذلك المنافسة على الحظوة لدى الملوك والأمراء وطموحه للحاق بمنزلتهما، غير أنه أخفق في ذلك، إذ ثلبه الخالديان وطارداه من حلب إلى الموصل فبغداد، وانتصرا عليه في كل مكان، فقطعا رسمه من سيف الدولة وركبه الدين في بغداد[3].

وقد ترك الخالديان عدداً من التصانيف في الأدب والنقد فضلاً عن ديوان شعرهما ومن مؤلفاتهما:

- كتاب أخبار أبي تمام ومحاسن شعره.
- اختيار شعر ابن الرومي.
- اختيار شعر مسلم بن الوليد وأخباره.
- اختيار شعر ابن المعتز والتنبيه على معانيه.
- كتاب أخبار الموصل.
- كتاب التحف والهدايا.
- حماسة شعر المحدثين أو اختيار أشعار المحدثين.
- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين.

* * *

(١) الفهرست: ١٦٩، ومعجم الادباء ١١: ٢٠٩.
(٢) معجم الادباء ١١: ٢٠٨ - ٢٠٩.
(٣) الفهرست: ١٦٩.

الأشباه والنظائر

هو كتاب في الاختيار الشعري، ضم مقطعات وقصائد من أشعار الجاهليين والمخضرمين مع أشباهها ونظائرها من أشعار المحدثين، الذين عاصروهما في القرن الرابع الهجري قصد منه الخالديان عرض المعاني التي سبق إليها الأقدمون، وإجادة المحدثين أو تقصيرهم في أخذ هذه المعاني. مساهمة من الخالديين في قضية السرقات الأدبية التي شغلت نقاد ذلك العصر.

وقد تخلل الأشباه ونظائرها تعليقات للخالديين نبها فيها إلى المعاني المخترعة أو المتبعة، وبينا المعاني المسروقة، أو شرحا المعنى، أو نوها بإصابة التشبيه أو حسن التقسيم أو جودة المعنى. وهما يريان أن للمتقدمين فضل الاختراع وللمحدثين فضل التجويد والتزيين.

وكان اهتمام الخالديين بالشعراء المغمورين والأشعار الوحشية النادرة كبيراً، إذ لم يكن اهتمامهما منصباً على الأشعار المشهورة الذائعة، لذلك حوى الكتاب قدراً طيباً من غرر الأشعار التي خلت منها المصادر الأخرى، مما جعل له قيمة خاصة في دراسة التاريخ الأدبي.

ويخلو الكتاب خلواً تاماً من ظاهرة التبويب والترتيب، ولم يتقيد الخالديان بجمع النظائر كلها في موضع واحد، إذ ذكرا نظائر معنى واحد في مواضع مختلفة، ولم يشترطا على نفسيهما الإتيان بجميع النظائر، لأنهما كما قالا: «لم يحيطا بجميع العلم، والشعر أكثر مما يحصى».

النصوص المختارة

بسم الله الرحمن الرحيم

[وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم]

الحمدُ لله الواحد بلا كيفية تقع بها الإحاطةُ عليه، والأزليُّ بلا وقت تُنْسَبُ الصفاتُ إليه، حمداً يُورِدُ من جليل نعَمه، وجزيل قسمه، مَشْرَباً عذباً ومَسْحَباً رَحباً، وصلى الله على سيدنا محمدٍ ما أَورقَ شَجَرٌ، وأَينَعَ ثَمَرٌ، وعلى الطاهرين من عترته وسلَّم تسليماً.

وبعدُ - فَسَحَ اللهُ لنا في مدتك، ووفَّقَنا لما نؤثره من خدمتك - فإنّا رأيناكَ بأشعار المُحْدَثين كَلِفاً، وعن القدماء والمُخَضْرَمين مُنْحَرِفاً، وهذان الشَّريجان[1] هما اللّذان فتحا للمُحْدَثين بابَ المَعاني فدخلوه، وأَنْهجوا لهم طريقَ الإبداع فسلكوه، أما سمعتَ - زاد اللهُ قدرك علُوّاً ورِفعةً وسُمُوّاً - قول الشاعر[2]:

فلو قَبْلَ مَبْكاها بَكَيْتُ صَبابَةً ... إليها شَفَيْتُ النفسَ قبلَ التَّنَدُّمِ

ولكنْ بَكَتْ قبلي فَهَيَّجَ لي البُكا ... بُكاها فقلتُ: الفضلُ للمتقدِّمِ

ومن أمثالهم السائرة: ما تَرَكَ الأولُ للآخرِ شيئاً، إلاّ أنَّ أبا تمام لم يَرْضَ بهذا المَثَلِ حتى قال يصف قصيدةً له:

لا زلتُ مِنْ شُكري في حُلَّةٍ ... لابسُها ذو سَلَبٍ فاخرِ

يقولُ مَنْ تَقْرَعُ أَسْماعَهُ ... كَمْ تَرَكَ الأَوَّلُ للآخرِ

ومن المعنى الأول قولُ عَنْتَرَة: «هل غادر الشُّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ؟»

(١) الشريجان: اللونان المختلفان.

(٢) هو عدي بن الرقاع، يذكر حمامة.

أي ما تركوا كلاماً لمتكلّم. فإذا كان عنترةُ - وهو في الجاهلية الجَهْلاء، وإمامُ الفصاحة الفُصحاء - يقول مثل هذا القول فما ظنُّكَ بهذا العصر وقبله بمئتي سنة؟ فلسنا بقولنا هذا، أيدك الله، نطعن على المُحْدَثين ولا نَبْخَسُهم تَجْويدَهُمْ ولُطْفَ تدقيقهم، وطَريفَ معانيهم، وإصابةَ تشبيههم، وصحةَ استعاراتهم. إلا أنّا نعلم أنّ الأوائلَ من الشعراء رسَموا رُسوماً تَبِعها مَنْ بَعْدَهم، وعوّلَ عليها مَن قفَا أثَرَهم، وقلَّ شعرٌ من أشعارهم يخلو من معانٍ صحيحة، وألفاظ فصيحة، وتشبيهات مصيبة، واستعارات عجيبة، ونحن - أطالَ اللهُ في العزّ بقاءَك، وكبَتَ بالذُّلِّ أعداءَكَ - نُضَمِّن رسالتنا هذه مختارَ ما وقع إلينا من أشعار الجاهلية ومَن تبعهم من المخضرمين، ونجتنبُ أشعارَ المشاهير لكثرتها في أيدي الناس فلا نذكر منها إلا الشيءَ اليسيرَ، ولا نُخْليها من غُرَرِ ما رَوَيناه للمُحْدَثين، ونذكر أشياء من النظائر إذا وردت، والإجازات[1] إذا عنَّتْ، ونتكلمُ على المعاني المخترَعَة والمتبعَة، ولا نجمع نظائرَ البيت في مكان واحد، ولا المعنى المسروقَ في موضع، بل نجعلُ ذلك في مَوْضع ذكْره، وإن كنا نعلم أنكَ - أدامَ الله تأييدك - أعلمُ بما نحمله إليك، ونعرضه عليك، منّا. ومن أين لنا قرائحُ تنتج مالا تزال تُرِيْناه، وتسألُنا عنه، من دقيق المعاني وطرائف السرقات. ولقد تأتّى لكَ - أيّدَكَ الله - في بيتَي أبي تمام والبحتري على غموض المعنى، وبُعده في النوعين من دقة النظر ولطيف الفكر مالا يُتَوهَّمُ أنّه يطّردُ لسواكَ، ولا يَعِنُّ لغيرك، وهو أنك - أيد الله عزّك - قلتَ لنا: من أين أخذ البحتريُّ قولَه؟:

ركِبا القَنا مِنْ بَعْدِ ما حَمَلا القَنا ... في عسكرٍ مُتحامِلٍ في عَسكَرِ

فلم يكن عندنا فيه شيءٌ غيرُ الاستحسان والتقريظ، فعرَّفْتَنا - أيدك الله - أنه مأخوذ من قول أبي تمام:

رعَتْهُ الفَيافي بعد ما كان حِقْبَةً ... رَعَاهَا وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ ساكِبُهْ

ولا نعرف في النظر أدقَّ من هذا ولا ألطَفَ، إلا أنّا نُوفّي الخِدْمةَ حقَّها بما نتكلّفه من الاختيار والكلام على ما ذكرناه، وبالله التوفيق.

---

(١) الإجازة: أن تُتِمَّ مصراع غيرك.

[معنى قتال الأقارب بكره القلوب]

قال المُهَلْهِلُ بنُ رَبيعةَ:

بِكُرْهِ قُلوبِنا يا آلَ بَكْرٍ ... نُغادِيكُمْ بِمُرْهَفَةِ النِّصالِ

لها لَوْنٌ من الهاماتِ جَوْنٌ ... وإنْ كانَتْ تُغادَى بالصِّقالِ

ونَبْكي، حين نَذْكُرُكُمْ، عليكم ... ونقتُلُكم كأنَّا لا نُبالي

أبياتُ المُهَلْهِلِ هذه هي الأصلُ في هذا المعنى، ومثلُه قول الحُصَيْن بنِ الحُمَامِ المُرِّيِّ:

نُفَلِّقُ هاماً مِنْ رِجالٍ أعزَّةٍ ... علينا وهُمْ كانوا أعَقَّ وأظلَمَا

وأخذه بعضُهم فقال[1]:

قَوْمي هُمُ قَتَلُوا أُمَيْمَ أخي ... فإذا رَمَيْتُ أُصابَني سَهْمِي

فلَئِنْ عَفَوْتُ لأعفُوَنْ جَلَلاً ... ولَئِنْ قَتَلْتُ لأُوهِنَنْ عَظْمِي

وإلى المعنى الأول نظر أبو تمّام في قوله:

قَدِ انْثَنَى بالمنايا في أسِنَّتِهِ ... وقَدْ أقامَ حَيارَاكُمْ على اللَّقَمِ

جَذْلانُ مِنْ ظَفَرٍ حَرَّانُ مِنْ رَجَعَتْ ... أظْفارُهُ مِنكُمُ مَخْضُوبَةً بِدَمِ

ومن هذا المعنى أخذ البُحتُرِيُّ قَوْلَه:

إذا احْتَرَبَتْ يوماً فَفاضَتْ دِماؤُها ... تَذَكَّرَتِ القُرْبَى فَفاضَتْ دُمُوعُها

بَيْتُ البُحتُرِيِّ أَطْرَفُ وأَبْدَعُ مِنْ بَيْتِ المُهَلْهِلِ إلا أنه أَرْشَدَهُ إلى المعنى ودلَّ.

قال الغَطَمَّشُ الضَّبِّيُّ:

إني وإنْ كانَ ابْنُ عَمِّي عاتِباً ... لَمُقاذِفٌ مِنْ دُونِهِ ووَرائِهِ

(١) من قصيدة للحارث بن وعلة الجرمي.

ومُفِيدُهُ نَصْري وإنْ كانَ امْرأً مُتَزَحْزِحاً في أَرْضِهِ وسَمائِهِ

وإذا اكْتَسَى ثَوْباً جَميلاً لم أَقُلْ يالَيْتَ أَنَّ عَلَيَّ مِثْلَ رِدائِهِ

قال كَنَّازُ بنُ صُرَيْمٍ الجَرْمِيّ:

أَرُدُّ الكَتِيبَةَ مَفْلُولَةً وقد تَرَكَتْ لِيَ أَحْسابَها

ولَسْتُ إذا كُنْتُ في جانبٍ أَذُمُّ العَشِيرَةَ مُغْتابَها

قوله «وقَدْ تَرَكَتْ لي أَحْسابَها» معنىً جيدٌ، ذكَرَ أنه هزم أعداءَه فصارت مفاخرهم له بهزيمته إياهم.

[معنى عرف الحبيب بالديار]

وأنشد لبعض الأعراب:

أرى كلَّ أَرْضٍ دِمَنَتْها، وإن مَضَتْ لها حِجَجٌ، يَزدادُ طِيباً تُرابُها

أَلَمْ تَعْلَمَنْ يارَبَّ أَنْ رُبَّ دَعْوَةٍ دَعَوْتُكَ فيها مُخْلِصاً لو أَجابُها

لَعَمْرُ أَبي ليلى لَئِنْ هي أَصْبَحَتْ بوادي القُرى ما ضَرَّ غَيْري اغْترابُها

مثله للبحتري:

لَعَمْرُ الرُّسومِ الدارساتِ لَقَدْ غَدَتْ بِرَيّا سُعادٍ وَهْيَ طَيِّبَةُ العَرْفِ

مثلُه للنُّمَيري[1]:

تَضَوَّعَ مِسْكاً بَطْنُ نُعمانَ أَنْ مَشَتْ بِهِ زَيْنَبٌ في نِسْوَةٍ عَطِراتِ

مثله لأبي تمام: * لولا نَسِيمُ تُرابِها لم تُعْرَفِ *

قوله: «يَزْداد طِيباً تُرابُها» مثلُ قولِ جَميل:

(١) هو محمد بن عبد الله بن نمير الثقفي، وكان يشبب بزينب بنت يوسف أخت الحجاج.

ألا ليتَ شعري هلْ أبيتَنَّ ليلةً ... بأبطحَ فيَاحٍ بأسفلِه نخلُ
يفُوحُ علينا المسكُ منه وإنما ... به المسكُ أنْ جرَّتْ به ذيلَها جُمْلُ

ولبعضهم:

واستودَعتْ نشرَها الديارَ فما ... تزدادُ إلا طيِّباً على القِدَمِ

ومن هنا أخذ العبّاسُ بنُ الأحنَفِ قوله:

جرَى السَّيلُ فاستبكاني السَّيلُ إذْ جرَى ... وفاضتْ لهُ مِنْ مُقلتَيَّ غُرُوبُ
وما ذاكَ إلا حينَ خبِّرتُ أنَّه ... يَمُرُّ بوادٍ أنتَ منهُ قَريبُ
يكُونُ أُجاجاً دُونَكُمْ فإذا انتهَى ... إليكُم تلقَّى طيبَكُم فيَطِيبُ

أخذه ابن المعتز فقال:

فلما انتَهى قولُ السَّلام وردُّهُ ... لَفَظْنَ حَديثاً عطَّرتْه الملافظُ

أنشد ابن الأعرابي[1]:

على الميْتِ مِنْ بطْنِ الجزيرةِ كلَّما ... مَرَرْنا به أوْ لَمْ نَمُرَّ - سَلامي
وما ذاكَ إلا أنَّ زينَبَ جرَّرَتْ ... بهِ الذَّيْلَ لم تَنْزِلْ لِدارِ مُقامِ
كأنَّ تجاراً تحْمِلُ الطِّيبَ عرَّسوا ... بهِ ثم فضُّوا ثَمَّ كُلَّ ختامِ

وهذا كثيرٌ في أشعارهم قديماً ومُحْدَثاً. وأحسنُ ما قيل في هذا المعنى قولُ الشاعر[2]:

وأنْتِ التي حبَّبْتِ شِعْباً إلى بَدى ... إليَّ وأوطاني بلادٌ سواهُما
حلَلْتِ بهذا حلَّةً بعْدَ حلَّةٍ ... بهذا فطابَ الواديانِ كِلاهُما

ومثله لأبي نُواس:

لِمَنْ دِمَنٌ تَزدادُ حُسْنَ رُسُومِ ... على طُولِ ما أقْوَتْ وطِيبَ نَسيمِ

(١) الأبيات لفروة بن حميضة الأسدي. انظر المؤتلف والمختلف: ١٠٥.
(٢) هو كثيّر بن عبد الرحمن الملقب بكثير عزة.

سُوَيْدُ بنُ أبي كاهِل[1]:

ذَرِيني أَشُبْ هَمِّي بِـراحٍ فإنَّني ... أَرى الدَّهْرَ فيه فُرْجَـةٌ ومَضِيْـقُ
وما أنـا إلاّ كالـزمـان إذا صَحـا ... صَحَوْتُ وإنْ ماقَ الزَّمانُ أَمُوْقُ

هذا مِثْلُ قول بعض الطالبيين:

إذا عَقَلَ الدَّهْرُ لم تَلْقَني ... جَهُوْلاً وأَجهَلَ إمّا جَهِلْ
وما الحَزْمُ إلاّ لَدى نَشْوةٍ ... تباكَرَ بالكأسِ قَبْلَ العَذَلْ

أخذ هذا الشاعر معنى هذين البيتين في تفسير هذين.

القتّال الكلابيُّ:

إذا هبَّتِ الأرْواحُ كـانَ أَحبُّهـا ... إليَّ التي مِن نَحْوِ نَجْدٍ هُبُوْبُهـا
وإنّي لَيَدْعُوْني إلى طاعةِ الهَوى ... كَواعِبُ أَتْرابٌ مَراضٍ قُلُوبُهـا
كأنَّ الشِّفاهَ الحُوَّ مِنْهُنَّ حُمِّلَتْ ... ذَرَى بَـرَدٍ يَنْهَـلُّ عَنْهـا غُرُوبُـها
بِهِنَّ مِنَ الداءِ الذي أنا عـارِفٌ ... ومـا يَعْرِفُ الأَدْواءَ إلاّ طَبِيبُهـا

أُحَيْحَةُ بنُ الجُلاحِ الأَوْسِيُّ[2]:

وقَدْ عَلِمَتْ سَراةُ الأَوْسِ أنّي ... مِنَ الفِتْيانِ أَعْدِلُ لا أَمِيْـلُ
وقَدْ أَعْدَدْتُ لِلْحِدْثانِ حِصْناً ... لَـوَ انَّ المَـرْءَ تَنْفَعُـهُ العُقُـوْلُ
لَعَمْـرُ أَبِيْكَ ما يُغْني مَكانـي ... مِـنَ الفِتْيـانِ زَمِّيْـلٌ كَسُـوْلُ
فَهَـلْ مِنْ كاهِـلٍ أُودِيْ إليه ... إذا مـا كانَ مِنْ قَدَرٍ نُـزُوْلُ
يُـراهِنُّـنـي فيَرْهَنُّـنـي بَنِيْـهِ ... وأَرْهَنُـهُ بَنِـيَّ بِمـا أقُـوْلُ
لَمـا يَـدْري الفَقِيْرُ مَتى غِناهُ ... وما يَدْرِي الغَنِيُّ مَتى يَعِيْـلُ

(١) ونسب البيتان مع بيت ثالث إلى بشار بن برد. انظر الوحشيات: ١٤١.
(٢) من قصيدته المذهبة في جمهرة أشعار العرب.

وما تَدري إذا أجْمَعْتَ أمْراً بأيِّ الأرضِ يُدْرِكُكَ المَقِيلُ
وما تَدْري إذا أنْتَجْتَ سَقباً لأيِّ الناسِ يَنْتَقِلُ الفَصِيلُ
وما تَدري إذا أنْتَجْتَ شَوْلاً أتَلْقَحُ بَعْدَ ذَلِكَ أمْ تُحِيلُ

أمّا قوله: «بأيِّ الأرضِ يُدْرِكُكَ المَقِيلُ» فأخذه من قول الله عزَّ وجلَّ[1]:

﴿وما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَداً، وما تَدْرِي نَفْسٌ بأيِّ أرْضٍ تَمُوت﴾

وأمّا قوله: «وما تَدْرِي إذا أنْتَجْتَ سَقْباً»، البيتُ قريبٌ من قول الحارث بن حِلِّزَة اليَشْكُرِيّ[2]:

لا تَكْسَعِ الشَّوْلَ بأغْبارِها إنّك لا تَدْري مَن الناتِجُ

عَمْرو بْنُ الإطْنابَة:

ذُلُلٌ رِكابي حَيْثُ شِئْتُ، مُشايعي لُبِّي، أرُوعُ قَطا المَكانِ الغافِلِ
أظَلِيمُ ما يُدْرِيكَ كَمْ مِنْ خُلَّةٍ حَسَنٍ مَدامعُها كَظَبْيَةِ حابِلِ
قَدْ بِتُّ[3] مالِكَها وشارِبَ قَهْوَةٍ دِرياقَةٍ أرْوَيْتُ منها واغِلي
صَهْباءَ صافِيَةٍ تَرى ما دُونَها قَعْرَ الإناءِ تُضِيءُ وَجْهَ الناهِلِ
إنّي من القَومِ الذين إذا انْتَدَوا بَدأوا بِحَقِّ اللهِ ثُمّ النّائِلِ
المانِعينَ مِنَ الخَنا جاراتِهِمْ والحاشِدينَ على طَعامِ النازِلِ
والخالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَنِيِّهِمْ والباذِلينَ عَطاءَهُمْ للسائِلِ
والضاربينَ الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ ضَرْبَ المُهَجَّجِ عَنْ حِياضِ الناهِلِ

قد أخذَ في هذه الأبيات أشياء، وأُخِذَ منه أشياءُ، فما أخذَ قَوْلُهُ: «ذُلُلٌ

(١) سورة لقمان، الآية (٣٤).
(٢) من قصيدته المفضلية.
(٣) البيت في معلقة عنترة هكذا:
ذلل ركابي حيث شئت مشايعي لبى واحفزه بأمر مبرم

ركابي حيثُ شئتُ. . .» البيت، وهذا البيت بأسره لعنترة[1] إلاّ أنّا قد وجدنا مثلَ هذا في أشعارهم أشياءَ كثيرةً، فمن ذلك قولُ امرئ القيس:

وقُوفاً بها صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يقولون: لا تَهْلِكْ أسىً وتَجَمَّلِ

ولطَرَفَةَ بنِ العبدِ مِثْلُهُ حَرْفاً بحرفٍ، إلاّ أنه جعلَ مكانَ «تجمَّل» «تجلَّدِ».

[التوارد وهو عندنا سرقة لا محالة]

ومَنْ تَصَفَّحَ أشعارَ العربِ رأى من هذا عجائبَ. وهم يُسَمُّونَه التّوارُدَ وهو عندنا سرقةٌ لا محالةَ.

ومِمّا أخذه أيضاً قولُه: «قد بتُّ مالكَها وشاربَ قهوةٍ» البيتُ، وهذا بأسره للَبيد، إلاّ أنهما في عصرٍ واحد، فلا ندري أيُّهما أخذَ من صاحبه.

وأخذ أيضاً قولَهُ: «صَهباءَ صافيةٍ تَرى ما دُونَها قعر الإناء. . .»، وتمام البيت من قول الأعشى:

* تُرِيكَ القَذَى مِنْ دُونِها وهْيَ دُونَه *

إلاّ أنه لم يأتِ بمثل كلام الأعشى ولا قاربه.

وأما ما أُخِذَ منه فقوله: «والخالطين غنيَّهم بفقيرهم»، والبيتُ الآخرُ أخذه منه حسان بن ثابت مصالَتَةً فقال:

والخالطِينَ غَنِيَّهُمْ بِفَقِيرِهِمْ والمُنْعِمِينَ على الفقيرِ المُرْمِلِ

والضاربينَ الكَبْشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ ضَرْباً يَطيحُ به بَنَانُ المَفْصِلِ

وهذا أقبحُ ما يكونُ من الأخْذِ، وليس هو من التوارد الذي يذكرونه

(١) البيت في معلقة عنترة هكذا:

ذلل ركابي حيث شئت مشايعي لبى واحفزه بأمر مبرم

لأنّ ابنَ الإطنابة من الأوس، وحسّان من الأنصار، وهما من قبيلة واحدة، وكان ابن الإطنابة أقدمَ من حسّان، فلذلك قلنا أخذَه منه أخذاً.

قيس بن الخطيم:

فما رَوْضَةٌ مِنْ رياضِ القَطا ... كأنَّ المَصابيحَ حَوذانُها
بأحْسَنَ منها ولا مُزنَةٌ ... دلُوحٌ تَكَشَّفُ أدْجانُها
وعَمْرَةُ من سَرَوَاتِ النِّسَا ... ءِ تَنْفَحُ بالمِسْكِ أرْدانُها

عَمرةُ التي ذكَرَها أمُّ النُّعْمانِ بنِ بشيرٍ الأنصاريّ، وكانت له صُحْبَةٌ. وروى بَعْضُهم أنّ النُّعْمانَ بنَ بَشير غاب عن المدينة غيبةً طويلةً، ثم قَدِمها، فقال: أَسْمِعوني من أغانيكم، فجاؤوه بمغنِّيةٍ فاندفعت تغنّي:

أجَدَّ بِعَمْرَةَ غَنْيانُها ... أتَهْجُرُ أمْ شأنُنا شانُها
وعَمْرَةُ من سَرَوَاتِ النِّسَا ... ءِ تَنْفَحُ بالمِسْكِ أرْدانُها

فأومَى إليها جماعةُ مَنْ حضر المجلسَ أن تُخْفِي. وفَطِنَ النُّعمان لذلك، فقال: دَعُوها فما قالت إلاّ جميلاً.

[من شعر القتّال الكلابي]

وقال القتّالُ الكلابيّ:

لَقَدْ وَلَدَتْ عَوْفَ الطِّعانَ ومالكاً ... وعَمْرو العُلَى والحارثَ المتنجِّبا
رِجالٌ بأيديها دِماءٌ ونائلٌ ... يَكادُ عَلَى الأعداءِ أنْ يتحلّبا

ومن هذا أخذ البُحْتريُّ قوله:

وصاعقةٍ في كفِّه يَنْكَفي بها ... على أرْؤُسِ الأبْطالِ خَمْسُ سحائبِ
يكادُ النَّدَى منها يَفِيضُ على العِدى ... مع السيفِ في ثِنْيَيْ قَناً وقَواضبِ

والبحتريُّ، وإن كان أخذَ المعنى وأتى به في بيتين، فقد جوَّد وأحْسَنَ، وفَاقَ عـلـى وفَاقِ الأولَ بمـا أبـدَع فـي المـعـنـى الأول وزاد، لأنّه صيَّر السَّيْفَ صاعقةً، فيجوز أن يكونِ أرادَ حديدةً من صاعقة، على ما يَحكي بعضُ الناس في الصواعق، ويجوز أن يكون شبَّهَ السيفَ بالصاعقة لحدَّته، وأنّه يُتْلِفُ ما مَرَّ به، ثم ذكر أنه ينكفي به على أرْؤس الأبطالِ خمسُ سحائب، يعني أصابعَ الممدوح.

ومن النادر في هذا البيت أنه صيَّر السحائبَ مع الصاعقة، إذ كانا من جنس واحد.

وتقـول الفـلاسـفـةُ: إنّ الصـواعق تكون مع السَّحـائب الصَّيْفِيَّة دون الأمطار المطبقة في الشتاء.

ومِمَّا يُقَوِّي هذا القولَ قولُ لبيدٍ يرثي أخاه أَرْبَدَ وقد أحرقته الصاعقة:

أَخْشَى على أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولا ... أَرْهَبُ نَوْءَ السِّماكِ والأَسَـدِ

[الحذق في الشعر، وأخذ معانيه]

وهذان الكوكبان من منازل القمر، مَطْلعهما في آخر الربيع وأوّل الصيف. وهذا هو الحِذْقُ في الشعر وأخذ معانيه، ومَن أخذ المعنى هذا الأخذَ فهو أحقُّ به ممَّن ابتدعه. وقد شرَحنا أمرَ المعاني شرحاً شافياً في رسالتنا التي ذكرنا فيها شعرَ أبي نواس، فلذلك لم نشرح ههنا إلاّ اليسير. وبعدُ وقبلُ فقد سبق البُحْتُرِيُّ جميعَ الشعراءِ في هذا المعنى حُسناً وملاحةً وصحةً وفَصاحةً.

وقال حُمَيْدُ بنُ ثَوْرٍ الهلاليّ، ووجّه صاحبَين له إلى عشيقته فأوصاهما وصيَّة ما فوقها زيادة، وعرَّفهما من التلطّفِ والحِيَلِ أموراً ما أتى أحدٌ بمثلها ولا قاربَ، وهو:

خَليليَّ إنِّي مُشْتَكٍ ما أصابَني ... لِتَسْتَبْنِيَا ما قَدْ لَقِيتُ وتَعْلَمَا

أمِنْتُكُما إنَّ الأمانةَ مَنْ يخُنْ ... بها يَحْتَمِلْ يوماً مِنَ اللهِ مأثَمَا

فلا تُفْشِيا سِرّاً ولا تَخْذُلا أخاً ... أبَتْكُما منْهُ الحَديثَ المُكَتَّمَا

لتتّخِذا لي، بارَكَ اللهُ فيكما، ... إلى آلِ لَيْلَى العامِرِيَّةِ سُلَّمَا

وقُولاَ، إذا وافَيتُما أرْضَ عامِرٍ ... وجاوزتُما الحَيَّيْنِ نَهْداً وخَثْعَمَا:

نَزِيعَانِ مِنْ جَرْمِ بنِ رِبّانَ أنهم ... أبَوْا أن يُرِيقُوا في الهَزَاهِزِ مِحْجَمَا

وسيرا على نِضْوَيْكُما وتَقَصَّدا ... ولا تَحْمِلا إلاّ زِناداً وأسْهُمَا

وإنْ كانَ لَيْلاً فالْوِيا نَسَبَيْكُما ... وإنْ خِفْتُما أنْ تُعرَفا فتَلَثَّمَا

وزاداً قليلاً خَفِّفاهُ عليكما ... ولا تُبْدِيا سِرّاً لِقومٍ فيُعْلَمَا

وقُولاَ: خَرَجْنَا تاجِرَيْنِ فأبْطَأتْ ... رِكابٌ تركناها بتَلْيِثِ قُوَّمَا

ومُدَّا لهم في السَّوْمِ حتى تمكّنا ... ولا تَسْتَلِجَّا صَفْقَ بَيْعٍ فتُلْزَمَا

فإنْ أنْتُما اطْمَأنَنْتُمَا وأمِنْتُما ... وأخْلَيْتُما ما شِئْتُما فتكلَّمَا

وقُولاَ لها: ما تأمُرِينَ بِصاحِبٍ ... لنا قد تَرَكْتِ القَلْبَ منه مُتَيَّمَا

أبِينِي لنا أنّا رَحَلْنا مَظِنَّةً ... إليكِ فلم نَبْلُغْكِ إلاّ تَجَشُّمَا

فجاءَا ولمَّا يَقْضِيَا لِيَ حاجَةً ... إليها ولمَّا يَجْعَلاَ الأمرَ مُبْرَمَا

فما لهما مِنْ مُرْسَلَيْنِ لحاجةٍ ... أسَافَا من المالِ التِّلادِ وأعْدَمَا

[معنى الهجاء]

أما قوله «وقولا إذا وافَيتُما» البيت وقوله «نزيعان» البيت بعده فمن طريف الهجاء ودقيقه ومُمِضّه؛ وذلك أنه ذكر قوماً فقال: هم لا يَقتُلون ولا يُقْتَلُون فليس أحد من العرب يطلبهم بِوترٍ ولا طائلة، فلذلك أمر صاحبَيْه

بالانتساب إليهم لئلا يذكرا غيرهم من القبائل فيكون الذي يسألهما عن نسبهما يطلب تلك القبيلة التي ذكراها بطائلة فيقتلهما. وهذا من غريب الهجاء وبديعه. وشبيهٌ به قول الآخر[1]:

إذا الله عادى أهلَ لُؤم ورِقّة ... فعادَى بني العَجلان رهطَ ابن مُقْبِلِ

قُبَيِّلَة لا يغدرون بذمَّة ... ولا يظلمون الناسَ حبّة خَرْدَل

ولا يردون الماءَ إلاّ عشيَّة ... إذا صدرَ الوُرّادُ عن كلِّ منهلِ

يريد أنهم لا يستطيعون أن يغدروا ولا يظلموا أحدا ولا يردون الماءَ حتى يصدر الناس عنه لضعفهم وذلّتهم، وهذا مثل قول بنْتي شعيب لموسى عليهما السلام وقد سألهما عن وقوفهما والناس يسقون، وقد قالتا له: «لاَ نَسْقِي حتّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ» فهؤلاء نساء وحقهم الضعف عن مقاومة الرجال.

وشبيه بهذا المعنى قول الأعجم[2]:

ويشكر لا تستطيع الوفاءَ ... وتعجِز يشكرُ أن تغدِرَا

فهذا ذكر أنّ الغدر في طباعهم إلاّ أنهم يعجزون عنه لذلّهم وقهر الناس لهم. وذُكِر أن بني العجلان استَعْدَوا عمر بن الخطاب على الذي هجاهم بالشعر الذي ذكرناه وقالوا هجانا هجاء ما هُجِيت العربُ بأقبح منه. فقال لهم: أنشدوني ما قال فيكم، فأنشدوه:

قُبَيِّلَةٌ لا يغدرون بذمَّةٍ ... ولا يظلمون الناسَ حبَّةَ خردَلِ

فقال: ليتَ الخطّابَ وأهلَ بيته وجميعَ بني عديّ بن كعب بهذه الصفة، لا يغدرون ولا يظلمون، ما أرى بأساً، هيه. فقالوا:

ولا يَردون الماء إلاّ عشيَّة ... إذا صدر الورّاد عن كل منهلِ

فقال: ذاك أصفَى للماء وأجَمُّ له، ما أرى بأسا ولا على قائل هذا

(١) هو النجاشي الحارثي.

(٢) هو زياد الأعجم.

الشعر عقوبةً ولم يُعْدِهم عليه . وعُمر كان أعلمَ بالشعر من قائله ولكنَّه أراد بهذا معنىً . وأمّا قول حُميد بعد وصيته لصاحبَيه بما ذكرناه «ومدّاً لهم في السوم» البيت [فنهاية في التيقظ] .

و[أمّا] قوله وقد عاد إليه رسولاه بغير قضاء حاجة «فما لهما من مرسلين» البيت فقد جوَّد لهما إذ كانا يستوجبان أضعاف ما دعا عليهما به لتقصيرهما مع وصيته إياهما واحتياطه في توجيههما . ولشتّان بينهما وبين صاحبة ابن أبي ربيعة الّتي يقول فيها :

وبعثْتُ طبَّةً عالمةً ... تخلط الجدَّ مِرارا باللَّعِبْ

ترفَعُ الصوتَ إذا لانَتْ لها ... وتُراخي عند سَوْرات الغَضَبْ

هذه بلغت بغير وصية كلّ ما في نفس صاحبها ، وهذان لم يبلغا ، مع وصية صاحبهما ، شيئاً .

[معنى «كفى بالسلامة داء»]

ولحُميد في هذا الشعر بيت قد أكثرت الشعراء في القديم والمحدَث في معناه فما فيهم أحدٌ أتى به إلا دون بيت حُمَيد ، وهو قوله :

أرى بَصَري قد خانني بعد صِحَّةٍ ... وحسبُك داءً أن تصِحَّ وتسْلَمَا

هذا بيت قد جمع مع صحة المعنى جودةَ اللفظ وحسنَ التقسيم وملاحة الكلام ، وإن كان أخذه ممن قبله فقد زاد عليه لأنّ النَمِرَ بن تولب أولُ من أتى بهذا المعنى في قوله :

ودعوتُ ربِّي بالسلامة جاهداً ... ليُصحَّنِي فإذا السلامةُ داءُ

وهذا البيت وإن كان الأولَ فبيت حميد أحسن كلاماً وأجودُ وصفاً .

وروي أن ابن عباس سمع منشداً ينشد بيت النمر هذا فقال : لا إله إلا الله ، ما أعجبَ هذا! كلام العرب منشبك بعضُه ببعض . قال النبي ﷺ : «لو لم يُوكل

بابن آدم غير الصحة والسلامة لأوشكا أن يُتلفَا»، فالنبي ﷺ أتى بهذا المعنى منثوراً وأتى به الشاعر منظوماً. وقد ذكر جماعة من الشعراء المتقدمين والمحدثين هذا المعنى فبعضهم قارب وبعضهم قصَّر. والأجود من كل ما قيل في هذا الباب بيت حُميد. ولبعض المتقدمين فيه:

ويهوَى الفتى طولَ السلامة جاهداً ... فكيف يُرى طولَ السلامة يفعَلُ

هذا وإن كان قائله متقدماً فهو دون ما ذكرنا، لأنه لم يبيِّن المعنى كما بيَّنه غيره، ولهذا قيل: المعنى لمن اخترعه، فإن زاد [عليه] الآخذُ له فهو أحقُّ به، وإن قصَّر عنه فإنَّما فَضح نفسَه. وقد جوَّد أبو العتاهية هذا المَعنى في قوله:

نهوَى من الدنيا زيادتَها ... وزيادةُ الدنيا هي النقصُ

وقال أيضاً:

* أسرعَ في نَقصِ امرئٍ تمامُهُ *

وفي مثله يقول الآخر:

وتحسِب أنّ النقصَ فيك زيادة ... وأنت إلى النقصان حين تزيدُ

ولو ذهبنا إلى استغراق جميع ما في هذا الباب لطال واتَّسَع.

وقال حُميد أيضاً:

ليالِيَ أبصارُ الغواني وسَمعُها ... إلَيَّ وإذ ريحي لهنَّ جَنوبُ

وإذ ما يقول الناسُ شيء مُهوَّنٌ ... عليَّ وإذ غُصنُ الشبابِ رطيبُ

فلا يُبعدِ اللهُ الشبابَ وقولَنا: ... إذا ما صبونا صبوة سنتوبُ

فإنّ الذي يشفيكَ مما تضمّنَتْ ... ضلوعُكَ من وَجْدٍ بها لَطبيبُ

وإنّ الذي منّاكَ أن تسعف النوى ... بها بعد أيام الصِّبَى الكذوبُ

أما قوله في ذكر النساء «وإذ ريحي لهن جنوب» فإن الجنوب عند العرب أحْمَدُ من الشمال لأنها تجلب المطر ويكون معها السحاب، والشمالُ تقطع السحاب ولا يكون مع أكثرها مطر، ولذلك فضَّلوا الجنوب على الشمال.

وأما قوله:

فلا يُبعد اللهُ الشبابَ وقولَنا: إذا ما صبونا صبوة ستتوبُ

فمن أملح الكلام وأطرفه وأرقّه ولو لم يكن فضائل الشباب غير ما ذكر الشاعر في هذا البيت لكفاه، ولم نعلم أحدا أتى بأحسن من هذا المعنى واللفظ في تذكر عهد الصبا وأيام البطالة. وشبيه بقوله «إذا ما صبونا» البيت قول بعضهم[1]:

أتانا بها حَمراءَ يحلف أنّها طبيخٌ فصدَّقْناه وهو كَذُوبُ
فهلْ هي إلاّ ليلةٌ غاب نحسُها أواقعُ فيها الذنْبَ ثمَّ أتوبُ

ومثله قول أبي نواس:

لو شئتَ لم نبرحْ من القُفْصِ نشربُها حمراء كالحُصِّ
نسرق هذا اليومَ من ربِّنا وإنّما يُعفَى عن اللِّصِّ

وشبيه به بيت قرأناه في هيكل دير متّى وهو:

سقّنا يا غلام في هيكل الدَّيْـ ـرِ شراباً يختاره الرهبانُ
[هاتِها كالعقيق حمراء ولْيُجْـ ـهَدْ علينا بجهده رمَضانُ]
هو يومٌ مكانَ يومٍ ويعفو الـ ـلهُ عنّا فربُّنا منّانُ

[من شعر جِران العَوْد النُّميري]

وقال جِرانَ العَود النُميَري، ولا يعرف في نسيب الأعراب وغزلهم أحسن ألفاظاً من هذه القصيدة ولا أملح معاني، والمختار منها قوله:

(١) هما في العقد ٤/ ٣١٩ لعبد الله بن القعقاع باختلاف وفي القالي ٢/ ٥٩ لأعرابي «دخل على بعض الأمراء وهو يشرب فجعل يحدثه وينشده ثم سقاه، فلما شربها قال: هي والله أيها الأمير، أي هي الخمر، فقال: كلا، إنها زبيب وعسل، فلما طرب قال له: قل فيهما، فقال البيتين».

حُمِدتَ لنا حتى تمنّاكَ بعضُنا ... وقلنا أخو هزلٍ عن الجدّ يصدفُ
وفيكَ إذا لاقيتَنا عَجْرَفيَّةٌ ... مراراً وما نهوَى الذي يتعَجْرفُ
فموعدُكَ الوادي الذي بين أهلنا ... وأهلكَ حتى نسمعَ الديكَ يهتفُ
ويكفيكَ آثارٌ لنا حين نلتقي ... ذُيولٌ نُعفيها بهنّ ومُطرَفُ
فنُصبحُ لم يُشْعَر بنا غيرَ أنّه ... على كلّ حالٍ يحلفون ونَحلِفُ
فأقبلنَ يمشينَ الهُوَينا تهاديا ... قِصارَ الخُطا منهنّ رابٍ ومرجَفُ
فلمّا هبطن السهلَ واحتَلنَ حيلةً ... ومن حيلة الإنسان ما يَتخَوفُ
حملن جِرانَ العَود حتى وضَعنَه ... بعلياءَ في أرجائها الجنُّ تُعزفُ
فبِتنَا قُعوداً والقلوبُ كأنّها ... قطاً شُرَّعَ الأشراكِ ممّا نخَوَّفُ
علينا النَّدَى طوراً وطوراً يرشُّنا ... رذاذٌ سرى من آخر الليل أوطَفُ
يُنازعُنَنا لَذّاً رخيماً كأنّما ... عوائرُ من قَطْرٍ حداهُنَّ صَيِّفُ
رقيقُ الحواشي لو تسمَّعَ راهبٌ ... ببُطنَانَ قولاً مثلَه ظلَّ يَرْجُفُ

وقوله يصف قولها له «وفيك إذا لاقيتَنا عجرفيَّة» البيت، يقال إنّ النساء يملن إلى من كانت فيه دعابة ولهو ولا يملن إلى غير ذلك، فذكر جران العَود عنهن أنهنّ قُلنَ له: لستَ على ما وُصفتَ لنا لأنّ فيك عجرفيَّةً، وقد وُصفتَ لنا بغيرها حتّى تمنَّيناك وما نحبّ الذي يتعَجْرَفُ. ويُذكَر أنّ كُثيِّراً أنشد بعض نساء الأشراف قوله:

وكنتُ إذا ما جئتُ أجلَلْنَ مَجلسي ... وأعرضْنَ عنه هَيبةً لا تَجهُّمَا
يُحاذِرنَ منّي نبوةً قد عرفنَها ... قديماً فما يضحكنَ إلاّ تبسُّما

فقالت له: يا ابن أبي جُمعَة، أبهذا القول تدَّعي الغزل؟ والله ما نال وصلنا وحظي بودّنا إلا من يجري معنا كما نريد ويجعل الغيَّ، إذا أردناه، رشداً. قُم لعنك الله، فقام منقطعاً. وإلى قولها نظر البحتري فقال:

ولا يؤدّي إلى المِلاحِ هَوَى ... من لا يرى أنّ غيَّه رشدُ

وقوله «ويكفيك آثار لنا حين نلتقي» البيت، معنى مليح، وقد اشترك فيه جماعة من الشعراء فأوّل ذلك امرؤ القيس في قوله:

فقُمتُ بها أمشي تجرُّ وراءنا ... على إثرِنا أذيالَ مرطٍ مُرحَّلِ

وقال ابن المعتز:

فقُمت أفرش خدي في الطريق له ... ذلاً وأسحب أكماماً على الأثرِ

ولابن المعتز في هذا المعنى زيادة حسنة على من تقدمه.

وقوله «فنصبح لم يشعر» البيت، كلام طريف وكذب مليح لأنّه قال لابد من تهمة تلحقنا فنحلف أنا لم نفعل ويحلفون أنا قد فعلنا.

وقوله «فأقبلن يمشين» البيت من أحسن ما يكون في صفة المشي.

[معنى مشي المرأة]

وقد أكثرت الشعراء في هذا الباب، فمن مليحه قول بعضهم[1]:

يمشين مَشْيَ قطا البطاح تأوُّدا ... قُبَّ البطون رواجح الأكفالِ

وإنّما شبَّهوا مَشْيَ المرأة بمشي القطاة لأنّ فيها سرعةً وتأوُّداً

وقال المنخَّل:

ودفعتُها فتدافعَتْ ... مشيَ القطاة إلى الغَديرِ

وللأعشى في المشي شيء حسن وأشياء يُفْرط فيها. فمن الجيِّد قوله:

غرَّاءُ فرعاءُ مصقولٌ عوارضُها ... تمشي الهوَينا كما يمشي الوجي الوجِلُ

كأنّ مِشيَتَها من بَيتِ جارَتِها ... مرُّ السحابةِ لا رَيثٌ ولا عَجَلُ

[معنى حديث النساء]

وأما قوله في ذكر الحديث: «ينازعنا لَذّاً» والذي بعده فهو حسن نادر، إلا أن الشعراء في الحديث أكثروا من جيِّده؛ ومن حَسَنه قولُ القطاميّ:

(١) نسب البيت إلى الكميت بن زيد، وإلى الكميت بن معروف الأسديين.

فهنّ ينبذْنَ من قول يُصِبنَ به ... مواقعَ الماءِ من ذي الغُلّةِ الصَّادي
يقتُلْنَنا بحديث ليس يفهمُه ... من يتَّقِينَ ولا مكنونُه بادي

ومن مليح هذا المعنى قولُ بُشار:

وحديثٍ كأنه قطع الرَّو ... ضِ زَهَتْه الصفراءُ والحمراءُ

ذكر أنّ حديثها مثل الرياض في ملاحتها وأنّه يجمع جِداً وهزلاً.

وقال بشار أيضاً:

ولها مَضْحَكٌ كَنَوْرِ الأقاحي ... وحديث كالوَشْيِ وَشْيِ البرُودِ

وله أيضاً:

دعَتْني حين شِبتُ إلى المعاصي ... محاسنُ زائر كالرِّيم غَضِّ
كأنّ كلامَه يومَ التقَينَا ... رَمِيٌّ خَدَّ[1] في طولي وعَرضِي

وله أيضاً:

حَوراء إن نظرت إليكَ سقَتكَ بالعَينين خَمرا
وكأنّ رجعَ حديثِها ... قِطَعُ الرياض كُسِينَ زَهْرا

وقال بعض ولد أسماء بن خارجة الفزاريّ:

وحديث ألَذُّه وهو ممّا يونق السامعين، يوزَنُ وَزْنَا
منطقٌ صائب وتلحن أحيَاناً وأحلى الحديثِ ما كان لَحْنا

ذكر أنها تحدَّثُ بحديث يفهمَ ثم تخشى [نَمّ من يحضر] من الوشاة فتلحَنُ لهم بمعنى يعرفه وإشارة يقف[2] عليها لا يعرفها غيرها وغيره. قال الله تعالى: ﴿ولتعرفنَّهم في لحن القول﴾، أي في معنى القول، يقال هذا لحن بني فلان: أي لغة بني فلان.

(١) الرَّمِيّ: سحابة عظيمة القطر شديدة الوقع.

(٢) اللحن، هنا: الكناية عن الشيء والتعريض بذكره.

ومن أجود ما قيل في هذا الحديث قديماً وحديثاً قولُ ابنِ الروميّ:

وحديثُها السِّحرُ الحلال لو أنّه ... لم يجْنِ قتلَ المسلم المتحرِّز

إن طال لم يُملَلْ وإن هي أوجزَتْ ... ودّ المحدّثُ أنّها لم توجزِ

شركُ القُلُوب ونزهة ما مثلها ... للمطمئنّ وعُقلةُ المُستوفزِ

هذا نهاية ما قيل في هذا الباب. وقد تناول ابن الرومي قوله «ودّ المحدِّث أنها لم توجزِ» من بعض المتقدمين[1]، وهو قوله:

من الخفراتِ البِيض ودّ جليسُها، ... إذا ما قَضَتْ أحدوثةً، أن تعيدَها

ومن مليح ما قيل في الحديث أيضاً قول بعض الأعراب:

وحديثها كالغيث يسمَعُهُ ... راعي سِنينَ تتابَعَتْ جَدْبَا

فأصاخَ يرجو أن يكون حَيَاً ... ويقول من فَرَحٍ: هيَا ربَّا

[من شعر مسكين الدارمي]

وقال مسكين الدارميُّ:

ونارٍ دعوتُ المعتفين بضوئها ... فباتوا عليها أو هَدَيتُ بها سَفْرا

تضرَّمُ في ليل التِّمام وقد بدَتْ ... هوادي نجوم الليل تحسبُها جَمْرا

وإنّي امرؤ لا آلَفُ البيتَ قاعدا ... إلى جَنب عِرْسي لا أفارقُها شِبْرا

ولا مُقسِمٌ لا تَبرحُ الدهرَ بيتَها ... لأجْعلَه قبل الممات لها قبرا

إذا هي لم تُحصنْ أمامَ فنائها ... فليس يُنَجِّيها بنائي لها قَصْرا

ولا حامل ظنّي ولا قالَ قائلٍ ... على غيرةٍ حتى أُحيط به خُبْرا

وهَبْني امرأً راعيتُ ما دُمتُ شاهداً ... فكيف إذا ما غِبتُ من بيتها شَهرا

(١) هو كثيِّر عزَّة.

[معنى قلة الغيرة]

وأمّا أبياته في ذكر قلّة الغَيْرة، فقد ردّ مثلَها في موضع آخر من شعره وهو:

ألاَ أيُّهـا الغـائر المستَشيطُ ... عـلامَ تَغَارُ إذا لم تُغَرْ

فـما خيرُ عِرس إذا خفتَها ... ومـا خيـر بيت إذا لم يُزَرْ

تَغـارُ عَلَى النـاس أن ينظروا ... وهل يَفْتِنُ الصالحات النظَرْ

فـإنّي سـأُخْلِي لها بيتَها ... فـتَحْفَظ لي نفسَها أو تَذَر

وما نعلم أنّ أحداً من الشعراء سهّل ترك الغَيرة غير هذا. ونظنّه كأنّه يقول بالإباحة، وإلاّ فأيّ شيء دعاه إلى هذا القَول الذي يأنَفُ منه الأحرار.

ولشتّان بين مسكين الدارميّ في إغفاله تفقد امرأته وتركه الغيرة عليها وبين الذي يقول:

إذا كنتَ ذا عِرس تضنُّ بوصلها ... فلا تُخرِجَنْها تبتَغي ليلةَ القَدْرِ

ولا تُدخِلِ الحمّامَ عِرسَكَ، أنّني ... أخاف من الحمّام قاصمةَ الظَّهْرِ

وإلى هذا أشار أبو عليّ البصير في قوله:

دهَتْك بعلّة الحمّام خَشْفٌ ... ومال بها الطريق إلى سعيدِ

أرى أخبارَ بيتك عنك تخفَى ... فكيف ولَيتَ أعمالَ البريدِ

ولمسكين الدارمي أيضاً:

أرى كلَّ ريح سوف تسكنُ مرةً ... وكلَّ سماءٍ لا مَحالةَ تُقْلِعُ

وإنّي والأضيافَ في بُردة معاً ... إذا مات نصفُ الشمس والنصف يَنزِعُ

أحدّثُه إنَّ الحديثَ من القِرى ... وتَعرفُ نفسي أنه سوف يَهجَعُ

قوله: «إني والأضياف في بردة معاً» البيت، حسن جداً، وذلك أنّ

البرد في الشتاء أشدّ ما يكون طرفَي النهار، فهو قوله: «إذا مات نصف الشمس» أراد آخر النهار وقد غاب نصف الشمس وهو الذي مات، والنصف الذي ينزع هو الذي بقي منها، وهذا استعارة في نهاية الحسن والجودة.

[مضاحكة الضيف ومحادثته]

وأما قوله: «أحدّثه إن الحديث من القِرى» جيد حسن، وتمام الكرم عندهم مضاحكة الضيف ومحادثته وطلاقة الوجه. ومن أمثالهم: إنّ الحديث من القِرى طرفٌ. وقال الآخر[1]:

أُضاحِكُ ضيفي قبلَ إنزال رحْلِه ... ويُخصِبُ عندي والمحلُّ جديبُ

وما الخِصبُ للأضياف أن يكثُرَ القِرى ... ولكنّما وجهُ الكريم خَصيبُ

وله أيضاً:

ناري ونارُ الجارِ واحدةٌ ... وإليه قَبلي تُنزَلُ القِدْرُ

ما ضرّ جاراً لي أُجاورُهُ ... أن لا يكون لبابِه سِتْرُ

أعمَى إذا ما جارتي ظهرَتْ ... حتى يُغيِّبَ جارتي الخِدْرُ

ذكر بعض الرواة أن امرأة مسكين خاصَمَتْه ونسبَتْه إلى البخل، فقيل لها: أليس هو القائل:

ناري ونار الجار واحدة ... وإليه قبلي تُنزل القِدرُ؟

قالت: صدَقَ، النار والقدر لجاره، وإليه تُنزل قبله لأنّه صاحبُها؛ وهو أيضاً لا يشعل ناراً مخافة أن يراها ضَيفٌ فيأتيَها، فعجب كلّ من حضر لتأتِّيها وحسن جوابها.

---

(١) هو مسكين نفسه.

وله أيضاً:

فما زال لي مثل الغزال وسابحٌ ... وخطّارة غِبَّ السرى من عياليا

أُقاسِمُهُمُ للمالِ في القُلِّ والغنى ... ويدفع عنهنّ السنين احتيَاليَا

فهذا لأيام الطِّراد وهذه ... لِلَهوي وهذي يُسِّرَتْ لارتحاليَا

وإنّي لأستَحيي أخي أن أرى له ... عَلَيَّ من الحقّ الذي لا يرى لِيَا

قوله: «فهذا لأيام الطِّراد...» البيت، حسن التقسيم محكم الصنعة. ذكر أنّ فرسه لأيام الحرب، وجاريتَه لأيام السلم، وناقته لرَحله. وهذا شبيه بقول رجل سافر عن امرأته، فاشترى جارية وفرساً، وأقام بالبَلد الذي سافر إليه، فكتبت إليه امرأتُه تَستَبْطِئُه، فكتب إليها:

ألاَ أقْرِها مني السلام وقل لها ... غنِيتُ وأغْنَتني الجُمانةُ والوَرْدُ

شديد مناطِ المنكبَين إذا جرى ... وبَيضاء مِبهاجٌ يُزَيِّنُها العقدُ

فهذا لأيام الطِّراد وهذه ... لحاجة نفسي حين ينصرف الجُندُ

هذا يقرب من شعر مسكين الذي قدّمنا ذكره إلاّ أنه أجود من هذا، أنّ مسكيناً ذكر ثلاثة أشياء في بيت واحد، وهذا ذكر شيئين في ثلاثة أبيات فبينهما تفاوت بعيد.

وقال الحارث بن عوف الغامديّ:

فإن أكْبَرْ فإنّي في لِداتي ... وعاقبةُ الأصاغرِ أن يَشيبُوا

وما كبَّرتُ فائدتي بغَدْرٍ ... كفاني في الفوائد ما يَطيبُ

أبَى لي ذاكمُ خالي وعمّي ... وفضلُ المالِ والصنعُ الرحيبُ

قوله: «فإن أكبر فإني في لداتي» في نهاية التعزّي والتسلّي عن الشباب. يريد: إنّي ما أُصِبْتُ بالشيب وحدي فأغتمَّ، ولكن قد أُصِبتُ مع غَيري، فهذا يُسلّي عنّي. ومثل هذا ما أنشدنا ابن دريد لبعض الأعراب:

أنحن ذممناها أم الناس كلهم ... سقوا شربهم منها برنق مكدر
وقد يجزع الإنسان ينكب وحده ... وإن تكن البلوى مع الناس يصبر

وقال الحارث بن مريم الوادعيّ:

فما نفح روض ذي أقاح وحنوة ... وذي ورق من قلة الحزن عازب
ولا ريح فغو أو خزامى وحنوة ... أرشت عليه سارياتُ السحائب
بأطيبَ منْ فيها إذا ما تقلبت ... مع الليل وسنى جانباً بعد جانب

وقال الحشيش بن عبد الله الوادعي:

إنّي إذا ما خفتم ورغبتم ... فأنا الحبيبُ لديكم والمصطفى
عجباً عجبت لمن يدنّس عرضه ... ويصون حلّته ويحميها الأذى
الثوب يبلى ثم يُشرى غيرُه ... والعرضُ بعد هلاكه لا يُشترى

ابن الدُّمَيْنَة:

أيا ربِّ أدعوك العشية مُخلصاً ... لتعفوَ عن نفس كثيرٍ ذُنوبُها
قضيتَ لها بالبخل ثمَّ ابتليتَها ... بحبِّ الغواني، ثم أنت حسيبُها
خليليَّ ما من حوبة تَرَيانها ... بجسمي إلاّ أمّ عمرو طبيبُها
أهُمُّ بجذِّ الحبلِ ثم يَرُدُّني ... تذكّرُ ريّا أمّ عمرو وطيبُها
ويَردُ ثناياها إذا ما تغوَّرتْ ... نجوم يشفّ الواجدين غيوبُها
وقد زعموا أنّ الرياحَ، إذا جرت ... يمانيةً، يشفي المحب دبيبُها
وقد كذبوا، لا بل يزيد صبابةً ... إذا كان من نحو الحبيب هبوبُها
فيا حبَّذا الأعراض طاب مقيلها ... إذا مسَّها قَطر وهبَّت جنوبُها

أما قوله: «قضيت لها بالبخل . . .» البيت، فإليه نظر القائل[1]:

(١) هو يزيد بن عثمان.

أيا ربّ تخلُقُ ما تخلُقُ وتنهَى عبادَك أنْ يَعشقوا

وأحسن منه قول الحسن المشرك الموصلي في هذا المعنى، وبه لُقِّبَ المشرك:

أيا رب تخلُقُ أقمارَ ليلٍ وقضبانَ بانٍ وكثبانَ رَمْلِ
وخشفانَ إنْسٍ تصيدُ القلوبَ بألفاظِ سِحْرٍ وألحاظِ قَتْلِ
وتُبدِعُ في كلّ خدٍّ بوردٍ وفي كلّ قدٍّ بشكْلٍ ودلّ
وتنهَى عبادَك أن يعشقوا فيا حاكمَ الحُكْمِ، ذا حُكْمُ عَدلْ؟

وقوله: «وقد زعموا أنّ الرياح إذا جرت» البيت، والبيت الذي يليه ضدّ ما ذكره كثير من الشعراء لأن بعضهم يقول[1]:

إذا الريح من أرض الحجاز تَنسَّمَت وجدتُ لَمسراها على كبدي بَرْدا
على كبدي قد كاد يُبدِي بها الهوَى صدوعاً وبعض القوم يَحسبني جَلْدا

وقال آخر:

إذا هبَّت الأرواح من نحو جانب به آل مَيٍّ هاج وَجدي هبوبُها
قريبة عهد بالحبيب وإنّما هوى كل نفس حيث كان حبيبُها

قيل: قوله يشبه قولَ المجنون:

ألا ياصبا نجدٍ متى هجتِ من نَجد لقد زادني مسراكِ وجْداً على وجْدِ

وهذان المعنيان في أشعارهم كثير جداً.

عبّاد بن أنف الكلب الصَّيداوي من بني أسد:

دفَعْنا طريفاً بأطرافنا وبالرّاح عنّا، ولم تدفعونا
فلَمْ يَبقَ إلاّ التي حاولَوا وخِفنا، وأحْرِ بها، أن تكونا

(١) هو علي بن علقمة.

فـــإنْ كـــان فـــيكم لكم ثروة فـــإنَّا عـــديدٌ وإن كـــان دُونا
وإنا إذا قـــابلتْنا الســـيـــوف وقـد هاجت الحرب ضـرباً ثبـينا
وطـاح الـرئـيـس وهـادى الـلّواء ولا تأكل الحـــربُ إلاّ ســـمِينا
وأعْصَمَ بـالصَّبـــــر أهلُ البَلاء فـــإنَّا هناك كـــمـــا تعلمـــونا

قوله «دفعنا طريفا . . .» يقول دفعنا حربهم بكلّ ما نقدر عليه، وهو مثل قولهم: دفعتُه عنّي بالراحة فلم يندَفع.

وقوله «فلم يبق إلاّ التي حاولوا» البيت يريد أنَّهم لا يندفعون عنّا وإن احتملناهم حتى يقع بيننا الحَرْب. ثم خاطَبَهم فقال: إنكم وإن كانت لكم ثروة وعدد فإنا نحن أيضاً عديد وإن كان دونا، وهذا مثل قول الآخر[1]:

أبَا خُراشـــــةَ، إمّا كنتَ ذا نَفَرٍ فـــــإنَّ قَومِيَ لم تأكلْهمُ الضَّبُعُ

ومثله[2]:

* فقلتُ لها: إنَّ الكرام قليلُ *

ثم ذكر الحرب وإنَّ الرئيس وحامل اللّواء يُقتَلان لأنَّهما مشهوران، والحربُ لا تأكل إلاّ السمينَ، وهذه استعارة حسنة، يريدَ أنَّ الفارس المشهور يقصده أعداؤُه حتى يُقتَلَ بشهرته ووضوح موضعه في الحرب. ورُوِي عن الحسن أنَّه قال: لو نادى منادٍ أنَّ رجلاً من أهل الأرض في النار، لخِفتُ أن أكون ذلك الرجلَ.

قال عمرو بن كلثوم:

مـــعـــاذَ الإله أنْ تَنوح نســـاؤُنا على هالك أو أن تَضِجَّ من القَتلِ
قـرعُ السيـوف بالسيـوفِ أحلَّنا بـــأرض بـــراحٍ ذي أراك وذي أثْلِ

(١) هو عباس بن مرداس.
(٢) هو للسموأل.

فـمـا أبْقَتِ الأيامُ مِلْمَالِ عندنا سِوى جِذْمِ أدْواد تُعينُ على الأزلِ
ثلاثَةُ أثلاثٍ فـأثمـانُ خَيلنا وأقـواتُنا ومـا نَسـوق إلى العَقْلِ

أما قوله «معاذ الإله أن تنوح نساؤنا» البيت فقد تناوله بعض الشعراء بأسره فقال:

مـعـاذ الإله أن تنوح نسـاؤنا على هـالـكٍ منَّا وإنْ قُصم الـظَّهْرُ

وقوله «فما أبقت الأيام . . .» البيت والذي يليه، فقد جوَّد فيما ذكر وأحسن القسمة في البيت الأخير إذ جعل جمالهم ثلاثة أقسام، فقسم يُصرَف في اثمان الخيل إذ كانت حصونهم التي يلجأون إليها ويبلغون بها الغايات ويدركون بها الترات، وقسم في أزوادهم وأقواتهم وما يَقْرون ضيوفَهم، وقسمٌ يسوقونه في ديات مَن يَقتُلُون، ولا نَعلم أحداً اتَّفق له في بيت واحد ولا أبيات كثيرة كما اتفق لهذا في صحة القسمة وشرح الأبواب التي تصرف فيها.

قيس بن زهير العَبْسيّ:

تركتُ النهـاب لأربابه وأكرهتُ نفسي على ابْن الصَّعِقْ
جـعلتُ يدَيَّ وشـاحـاً له وبعضُ الفـوارسِ لا يعـتَنِقْ

قد ذكرنا كما تقدَّم أنَّ أصل هذا المعنى بيت عنترة:

ينبئك من شـهـد الوقـيـعـة أنَّني أغـشَى الوغى وأعِفُّ عند المغنم

وذكرنا معه شيئاً من نظائره، فلما وقَفنا على هذا البيت علمنا أنّه الأصل فإن قال قائل: قيس بن زهير وعَنترة بن شدَّاد العبْسيّين في عصر واحد، قلنا: صدقتَ، إلاّ أنَّ قيس في آخر حرب داحس، وهو الوقت الذي قَتَل فيه خالدُ بن جعفر العامريُّ زهيرَ بن جذيمة العبْسيَّ، في أسره عمرو بن الصعق العامريّ، وما نحسب أنَّ عنترة كان ولُد في ذلك الوقت، وإنما لحق عنترة آخر أيام عبس وذبيان بعد يوم جَبَلَة، وإنما ثبتت شجاعته في يوم عُراعِر

ويوم الفَرُوقَ وهذان اليومان بعد يوم جَبَلَة، ويوم جَبَلَة كان وقد مضى من حَرب داحس شبيه بخمسين سنة. وجوَّد أيضاً قيس في قوله «جعلتُ يديّ وشاحاً له» البيت يقول إنّ أكثر الفرسان يطعن برمحه وبسيفه ولا يعتنق إلا الواحد من العدد الكثير. ومن جيد ما قيل في هذا المعنى الّذي قدَّمنا ذكره وأقدَمه قولُ عمرو بن كلثوم التغلبي:

فـأبوا بالنهـاب وبالسـبـايا ... وأبْنا بـالملوك مـصـفَّدينا

[في هجو النساء]

أعرابيّ يهجو امرأته:

خرقاءُ بالخير ما تُهدَى لوجْهتِه ... وهْيَ صَنَاعُ الأذَى في الأهلِ والجارِ

ليستْ بشَبْعَي ولو أوردتَها هَجَراً ... ولا بريَّا ولو حلَّتْ بذي قـارِ

إلى هذا نظر هذا القائل:

كالحوت لا يكفيه شيءٌ يلهَمُهْ ... يُصْبِحُ ظَمآنَ وفي البحر فَمُهْ

ولآخر يخاطب امرأته[1]:

يارُبَّ مثلكِ في النساءِ عزيزةٍ ... بَيضاءَ قد روَّعتُها بطلاقِ

لم تَدْرِ ما تحتَ الضُّلوع وغرَّها ... منّى تجمّل عِشرتي وخلاقي

[ذم من قصر عن آبائه]

أعرابيّ يمدَح معن بن زائدة، ويهجو روح المهلّب:

لئن كان معنَ زان شيبان كلّها ... لقد شان روحٌ كلَّ آلِ المهلَّب

رفيع بجدَّيه، وضيع بنفسه ... لئيمٌ مُحيَّاه، كريم المركَّبِ

(١) هو غيلان بن سلمة.

أخذ أبو تمّام قوله: «رفيع بجدّيه، وضيع بنفسه» البيت، فقال:

يا أكرم الناس آباءً ومفتخراً ... وألأم الناس مبلوّاً ومختبرا

يُغضي الرجال إذا آباؤه ذُكروا ... له ويُغضي إذا ما لُؤمُه ذُكرا

والشعر الأوّل الذي أخذ أبو تمام هذا المعنى منه أجودُ من قول أبي تمام وأحسن تركيباً وتقسيماً وأبلغ في المعنى، وقد ألمّ بهذا المعنى جماعة من الشعراء، فقال بعضهم:

إن قلتَ: كان أبي في بيت مكرمةٍ، ... قلنا: صدقتَ ولكن بئس ما ولَدا

وأتى به آخر فقال[1]:

أبوك أبٌ حرٌّ، وأمك حرّةٌ ... وقد يَلِدُ الحرّانِ غيرَ نجيبِ

فلا يَعجبَنَّ الناسُ منك ومنهما ... فما خبَثٌ من فضّةٍ بعجيبِ

ولابن المعتز يخاطب به رجلا فيقول: إنك كريم الآباء لئيم النفس، وهو:

حتى كأنّك نِقمةٌ في نِعمةٍ ... أو ثُومةٌ في روضةٍ من نرجسِ

وقال الله تعالى: ﴿يَمِيزَ الخَبِيثَ من الطَّيِّبِ﴾ والشعر في مثل هذا المعنى كثير، وهو يجيء في مواضع أُخَر إن شاء الله.

الشَّمَرْدَل اليربوعيّ:

ألا لا أُبالي من أتاه حِمامُهُ ... إذا ما المنايا عن بجيرٍ تجلّتِ

يكون أمامَ الخيلِ أوّلَ فارسٍ ... ويضرِبُ في أعجازها إن تولّتِ

ومن هذا أخذ البحتري قوله:

طليعتهم إن وجَّه الجيشُ غازياً ... وساقتهُم إن وجَّه الجيشُ قافلا

---

(١) هو حسان بن ثابت.

وقد ذكرنا نظائر هذا المعنى، وأكثرها فيما كتبنا في هذا الكتاب.

[معنى مشي المرأة]

ومن أحسن ما قيل في مشي النساء ما قال بعض الأعراب:

فقمن بطيئاً مشيهن تأوُّداً ... على قَصَبٍ قد ضاق عنه خلاخلُهْ

كما هزَّت المرّانَ ريحٌ فحرّكت ... أعالِيَ منه وارْجَحَنَّتْ أسافلُهْ

[معنى الهجاء: الاستهانة بغضب المهجو]

أعرابيّ:

فيا لله يشتمني قعين ... تعالى الله ربّي ذو الجلالِ

فتى إن يرضَ لا ينفعْك شيئاً ... وإنْ يغضَبْ فإنّك لا تُبالِي

وقد أخذه ابن الرومي فقال:

غَضِبتَ وطلْتَ من سفه وطَيْش ... تهزْهِزُ لحيةً في قدِّ رَقْشِ

فما افترَقَتْ لغضبتك الثريَّا ... ولا اجتمعَتْ لذاك بناتُ نَعْشُ

وقول ابن الرومي هذا أجود من الأول لفظاً وزيادةً في المعنى، ومثل الأوّل قول الآخر[1]:

أبو عامر كالناس يرضَى ويغضَبُ ... ويبعد في بعض الأمور ويقربُ

ولكن رضاه ليس يُجدِي قلامةً ... فما فوقَها، وسخطه لَيس يُرْهِبُ

أخيرُ من هذا كلّه قوله[2].

أرعِدْ وأبرِقْ يايزيدُ فما وعيدُك لي بضائرِ

(١) هو أبو علي البصير.

(٢) هو الكميت بن زيد.

ولشتَّانَ بين قول هذا في الغضب وقول جرير:

إذا غـــضـــبَتْ عليك بنو تميم حـــسـبْتَ الناس كلَّهم غـضـابا

وبين قول بشار بن بُرد:

إذا مـــا غـــضِبْنا غـــضـــبَةً مُضَرِيَّةً هتكْنا حجابَ الشمس أو قطرتْ دما

ومثل المعنى الأول في الاستهانة بالغضب قول أبي عليّ البصير.

يا أبا العَيناء لا تَغْضَبْ، وإنْ تَغـــضَبْ فـــأهْوِنْ

[معنى الهجاء بقصر النفس على المأكل والملبس]

الأعشى:

أبا ثابتٍ لا تـعلَقَنَّكَ رمـــاحُنا أبا ثابت واقْعُدْ فـــإنك طاعِمُ

طعامَ العراق المستجادَ الذي ترى وفي كلّ عـام كـســوة ودراهِمُ

فأخذ هذا المعنى الحطيئة فزاد على الأعشى زيادة بيّنَةً بقوله:

دَعِ المكارمَ لا ترحَلْ لبُغْيَتِهـــا واقْعُدْ فـإنّك أنتَ الطَّاعِمُ الكَاسي

وما أقرب هذا المعنى من قول الآخر:

إذا مـــا كنت ذا أكل وشُرب فـــلا تطمَحْ إلى نيل المعـــالي

هذا ضدّ قول امرئ القيس:

فلو أنّ ما أسعَى لأدنَى معيشةٍ كفاني، ولم أطلُبْ، قليل من المالِ

ولكنّمـــا أســـعَى لمَجْدٍ مـــؤثَّلٍ وقَد يُدرِكُ المَجْدَ الموثلَ أمـــثـالي

سلمة بن رِشْك اليشكري:

عـــاودَ القلب خـــبـــال ردَعَهْ كلّمـــا قلتُ تناهى صَدَعَهْ

وجوى من حبّ سلمى مضمرٌ أتعـبَ القـلـبَ وأبدى جزَعَهْ

وصـــديق الســـوء لا تأخـــذه　　بل جـــمـــيلُ الرأى في أن تدعَهْ
فـــاجْتَنِبْه واجـــتَنِبْ أشـــيـــاعَه　　إنّ من آخَى لئـــيـــمـــاً وضعَهْ

أما قوله «إنّ من آخى لئيماً وضعه» مثل قول الأنصاريّ:

سَلِي عن جليسي في النَدِى ومألَفِي　　ومن هُوَ لي عند الأمـــور ظهـــيـــرُ

وقريب منه قول عليّ بن الجهم:

نبـــيلُ الصـــديق والعـــدوّ وإنّمـــا　　يعـــادي الفـــتى أكـــفـــاءه ويُصـــالِحُ

إلاّ أنّ بيت عليّ بن الجهم أشد استيفاء للمعنى وأحسن في اللفظ ممّن تقدمه، وما يعرف في هذا المعنى مثل بيت عليٍّ هذا جودةً وفصاحة وحسناً.

ومثله:

يُقـــــاس المرءُ بالمرءِ　　إذا مـــا المرءُ مـــا شـــاه

والأصل في هذا قول عديّ بن زيد[1]:

عن المرءِ لا تسأل وسَلْ عن قرينه　　فـــإنّ القـــرينَ بالمقـــارِنِ مُقْتَدي

الأُحَيْمِرُ السعديّ وطرده قومه لكثرة جناياته:

وإنّي لأستَحْيـــي مـــن الله أنْ أرَى　　أجـــرَّ حَبْلاً ليس فـــيـــه بَعـــيـــرُ
وأنْ أســـألَ الوغدَ البـــخـــيلَ بَعـــيـــرَه　　وبُعْرانُ ربّي في البِلاد كـــثـــيـــرُ
عوَى الذئبُ فاستَأنَستُ للذئب إذ عوى　　وهـــيـــنَمَ إنســـــانٌ فكدتُ أطيـــرُ

بعض الأعراب:

رُجُحٌ فلَسْنَ من اللّواتي بالضُّحى　　لذيـولهنّ على الطريق غُبَـــارُ
وإذا خـرجن يعـدنَ أهل مُصـيبـةٍ　　كـان الخُطا [إسـراعُهـا] الأشـبـارُ
يأنَسن عند بعـــولهنّ إذا خلَوا　　وإذا هُم خـــرجـــوا فـــهنّ خِفـــارُ

(١) وورد البيت في معلقة طرفة.

وكلامُهنّ كأنّما مرفوعهُ ... بحديثهنّ إذا التقَينَ سرارُ

من ههنا أخذ أبو تمام قوله :

فالمشيُ همسٌ والنداءُ إشارة ... خوفَ انتقامِك والحديثُ سرارُ

وقال معن بن أوس المزني :

فلا وأبي، حَبيبٌ ما نفاهُ ... هوازنُ من بلاد بني يمانِ

وكان هَوَى الغنيِّ إلى غناه ... وكان من العشيرة في مكانِ

تكنَّفَهُ الوشاةُ فأزعجوهُ ... ودسُّوا من قضاعة غيرَوانِ

ولولا أنّ أمَّ أبيه أمّي ... وأنّي مَن هجاهُ فقد هجاني

إذاً لأصابه منّي هجاءٌ ... تناقلَه الرواة علَى لِساني

أعلّمه الرماية كل يوم ... فلمّا اشتَدَّ ساعدُهُ رماني

يُروى بالسين غير معجمة من السداد في الرمي وبالشين معجمة أكثرُ، أخَذَ دِعبِل هذا المعنى فقال :

إنْ عابني لم يعبْ إلاّ مؤدِّبَه ... فنفسَهَ عاب لمّا عاب أدَّبَهْ

وكان كالكلب ضرّاهُ مكلِّبُه ... لصيده فغدا فاصْطادَ كلاّبَهْ

أعرابيّ :

فإنْ يمنعوا منّا السلاحَ فعندنا ... سلاحٌ لنا لا تُشتَرى بالدّراهمِ

جنادلِ أملاءُ الأكفِّ كأنّها ... رؤوسُ رجالٍ حُلِّقت بالمواسم

رُوِي أنّ غلاماً من الأعراب أراد أن يمضي مع قوم من بني عمّه إلى حرب كانت لهم، فقال لهم : تجنّبوا النبل فإنّها رسل المنيّة، واحْذَروا الرماح فإنّها أَرْشِيَةُ الموت، وتوقّوا السيوف فإنّها لا سوء بعدها، قالوا: فبم نقاتل؟ فقال : بقول الشاعر :

جنادل أمـلاء الأكف كـأنّهـا رؤوس رجـال حلّقت بالمواسم

وقال عمار بن ثقيف الهلالي :

يارب قـائلة يومـاً لجـارتهـا : هل أنت مُخبرتي ما شأنُ عـمّارِ؟
قـالتْ أرى رجـلاً بادٍ أشـاجـعُهُ كـأنَّه ناقةٌ أو نِضوُ أسـفـارِ
إمّا تريني لجسمي غير محتشدٍ فـإنّني حـشـد للضـيف والجـار
وما على الحرّ أن تَعْرى أشـاجـعُهُ أو يلبس الخَلَقَ المرقـوعَ، من عـارِ

هذا البيت مثل قول الآخر[1] :

قـد يدركُ الشـرفَ الفـتى ورداءُهُ خَلَقٌ وجَيْبُ قـمـيـصِهِ مـرقـوعُ

وهذا البيت أجود لفظاً وإغراقاً في المعنى .

أعرابيّ :

إذا متّ فـابكيني بثنتين لا يُقل : كـذبتِ، وشرّ الباكيات كـذوبُهـا
بعـفّة نفس حين يُذكَرَ مطمعٌ وعـزّتُهـا إن كـان أمـرٌ يريبُهـا
فإن قلتِ : سمحٌ بالنَدَى، لم تكذّبي فـأمّا تُقَى نفسي فـربّي حسـيـبُهـا

قال عتيبة بن مرداس :

رأيتُ المعلّى ليس يُشـبـه عـمَّه ولا خـالَه ولا أباه المقـدَّمَا
أولئك مـا زالوا عـرانينَ خندف إذا كان يوماً كاسفَ الشمس مُظلما
وهذا فـمـا نلقـاه إلاّ مـصـمِّمـا على مال ذي القُربى وإن كان مُعدِما
فـتى تكثـر الأمـوال تحتَ عجـانه إذا أكـثـر الناس النَّدَى والتكرُّمـا
تراه كـمـاء البـحـر يدفع مِلحَه لورّاده عنه وإن كـان مُفـعَمـا

من هنا أخذ البحتريّ قوله :

(١) هو ابن هرمة .

جِدةٌ يذود البخلُ عن أطرافها كالبحر يدفع ملحَه عن مائه

ولقد جوّد البحتري، وإن كان قد أخذ المعنى بأسره وبعض اللفظ.

آخر:

نغدو فإمّا استُعرنا من محاسنه فضلاً وإمّا استُمحنا من أياديه

ولقد أتى ابن الرومي في نهاية التجويد واستيفاء المعنى بقوله:

يقول عليّ مرّةً وأنالني، وكان عليّاً في معانيه كاسْمِه:

«أرى فضلَ مال المرءِ داء لعِرضه كما فضل طعم المرءِ داء لجسمه»

فرحتُ برفديه وما زلت رابحاً برفدَين من شتّى نداه وعلمِه

قال ذو الرمّة:

وليلٍ كجلباب العَروس ادّرَعتُه بأربعةٍ والشَخصُ في العَين واحدُ

أحمُّ عِلافيٌّ وأبيضُ صارمٌ وأعيَسُ مُهْرِيٌّ وأشْعَبُ ماجدُ

أخذه البحتريّ فقال:

ياندَيمَيَّ بالسواجير من ودّ بن عمرو وبُحترُ بن عَتُودِ

اطْلُبا ثالثاً سواي فإنّي رابعُ العِيس والدُّجى والبيدِ

وما نَعلم أنّ البحتري أخذ لمتقدّم معنى أو لمحدث إلاّ زاد فيه أو ساواه بكلام عذب مليح إلاّ هذا المعنى فإنه لم يلحقْهُ وقصّرَ عنه. ولله درُّ ذي الرمّة فلقد طرف كلام بيته [الأول] وقد جوّد قسمة الثاني.

أعرابي قتل أخوه ابناً له فقدّم إليه ليقْتادَ منه فألقَى السيفَ من يده وقال[1]:

أقولُ للنفس تأساءً وتعزيةً إحدى يديّ أصابَتْني ولم تُرِدِ

كلاهما خلَفٌ من فقْد صاحبه هذا أخي حين أدعوه وذا ولَدي

(١) هو أبو العريان بن سهلة النبهاني.

وهذا مثل قول الآخر[1]:

وما كنتُ إلاّ مثل قاطع كفّه ... بكفٍّ له أخرى فأصبحَ أجْذَما
يَداه أصابت هذه حتفَ هذه ... فلم تجد الأخرى عليه مقدَّما
فلمّا أستقاد الكفُّ بالكفِّ لم يجدْ ... له دركاً في أن تَبِينَا فأحْجَما

ولبعض المحدثين في مثل هذا:

لم أجْنِ ذَنبا ولم أُردهُ فإن ... قارفتُ ذنبا فغيرَ مُعتَمِد
قد تطرِف الكفُّ عينَ صاحبِها ... فلا يَرَى قطعَها من الرَّشَدِ

وإلى هذا نظر البحتري في قوله يخاطب قوماً من طيء:

إنْ أرمِكم يكُ من بعضي لكم شُعَل ... تَهوِي إليكم ومن بعضي لكن جُنَنُ
رَدَدْتُ نفسي على نفسي فقلت لها: ... بنو أبيك فما الأحقادُ والإحَنُ

[وصف الثغور]

فأمَّا ذكر الثغور فإنّ الشعراء قد أكثرت في وصفها، ونحن نذكر هنا شيئاً من ذلك، قال الشاعر:

ومجدولة جدلَ العنان خريدة ... لها شَعَرٌ جَعدٌ وجسم منعَّمُ
وثغرٌ نقيّ اللَّون عذبٌ مذاقه ... تُضيءُ له الظَّلْماءُ حين تبَسَّمُ

وقال آخر:

وشفَّ عنها خمارُ القزّ عن بَرَدٍ ... كالبرق لا كَسَسٌ فيه ولا ثَعَلُ
كأنّه أقحوانٌ بات يضربُه ... ليلٌ من الدَّجْنِ سقّاطُ النَّدَى خَضِلُ

قد شاب هذان الشاعران شعرَهما في صفات الثغور بذكر الابتسام

(١) هو المتلمس الضُّبَعيّ.

لتقارب المعنيين، ومن جيّد ما قيل في صفة الثغر ونادره قول مسلم بن الوليد:

تبسَّمْن عن مثلِ الأقاحي تبسَّمَتْ له مُزْنَةٌ صَيْفِيَّةٌ فتبسَّمَا

وأحسن ما قيل في هذا المعنى للمتقدمين قول بشر بن أبي خازم:

يُفلِّجن الشِفاه عن أقحوان جَلاهُ غبَّ سارية قِطَارُ

ويروى عن الأصمعيّ أنّه قال: أحسن بيت ذُكر به الثغر بيت بشر هذا، وأحسن بيت قيل في فترة الجفون بيت ابن الرُّقاع:

وكأنَّها وَسْطَ النساء أعارَها عَيْنَيه أحورُ من جآذرِ جاسِمِ

وَسْنانُ أقْصدَهُ النُّعاسُ فرنَّقَتْ في عينِه سِنَةٌ وليس بنائمِ

ولعمري إنّ بيتَي ابن الرقاع هذَين في نهاية الحسن، ونحن نأتي بالنظائر في تفتير العيون وسقامهنّ في مواضع أُخر. فأمّا قوله إنّ بيت بشر أحسن ما قيل في صفة الثغر فالأمر عندنا بخلاف ذلك. والذي عندنا أنّ بيت مسلم، وإن كان قد أخذ المعنى من بشر، أجودُ تركيباً وأحسن لفظاً وأبلغ معنى. وبعدُ إنّ للمحدثين في ذكر الثغور من البدائع ما لم يأتِ بمثلها المتقدمون وإن كانوا الإمام المتَّبع، ونحن نذكر ههنا شيئا من قول الجميع ونذكر أولَ من اخترع المعنى من المتقدمين. وأولُ من شبه الثغر بالأقحوان أبو دؤاد الإيادي بقوله:

قامتْ تُريك غداةَ البين منْسَدِلاً وبارداً كأقاحي الرملِ برَّاقا

ومنه أخذ سائر الشعراء هذا التشبيه، فممَّن أخذه النابغة:

تجلو بقادمتَي حَمامة أيكةٍ بَرَدَا أُسِفَّ لِثاتُه بالأثمدِ

كالأقحوان غداةَ غبّ سمائه جفّتْ أعاليه وأسفلُه ندِي

شبه شفتَيها واللَّمى الذي فيهما بقادمتي الحمامة، وهذا الريش الذي

في قوادم الجناح، لأنّه أشدّ سواداً من الخوافي، فلذلك خصّ القوادم بالتشبيه.

ويجوز أن يكون إنّما عنى أصابعها وشبّهها بقادمتَي الحمامة، وذكر أن أطراف أصابعها مخضوبة وأنّه نظر إليها وهي تستاك فشبه أصابعها بقوادم ريش الجناح، وهذان القولان جميعا جائزان، وذكر الأصمعيّ أنه عنَى سواد لحم الأسنان وذلك أنهم كانوا يدمون اللثة ثم يذرون عليها الكحل لتَسْوَدَّ فيكون سوادها مع بياض الأسنان حسناً، وهذا أيضاً قولٌ. وقد أخذ جماعة من الشعراء المتقدّمين هذا المعنى من النابغة، فأحدهم الأعشَى في قوله:

تجلو بقادمتَي حمامة أيكة ... بَرَدا أُسِفَّ لثاتُه بسوّادِ

ذكر أنّها لمياءُ الشفَتَين، والعرب إذا وصفَتْ بياض الثغر خلطت بذلك سواد اللثة.

[معنى فضل النعمة على الشكر، وعكسه]

وقال أبو زُبَيْد الطائي:

سأقطع ما بيني وبين ابن عامرٍ ... قطيعةَ وصل، لست أقطع جافيا

فتى يتْبع النُعمى بنُعمَى تربُّها ... ولا يتبع الإخوان بالذمّ زاريا

إذا كان شكري دون فيض بنانه ... وطاولَني جوداً فكيف احتياليا

هذا معنى حسن، وقد تجاذبه جماعة من الشعراء وولدوا فيه أشياء بقرائحهم نحن نذكر بعضها، إلاّ أنّ الأصلَ فيه المُخترعَ له أبو زُبَيْد في الأبيات التي قدمناها، وممّن جوّد فيه أبو نواس بقوله:

قد قلتُ للعبّاس مُعتذراً ... من حمل شكريه ومُعترفا

أنتَ امرُؤٌ جلّلتَني نِعماً ... أوهَتْ قُوَى شكري فقد ضَعُفا

فـإليك بعـد اليـوم مـعـذرةً ... لاقتك بالتـصـريح منكشفاَ
لا تُسـديِنَّ إليَّ عـارفـة ... حـتّى أقـومَ بشكر مـا سلَفَا

وأتى بهذا المعنى دعْبِل بقوله:

فـأُقسِمُ لا عن جـفـوةٍ لا ولا قلًى ... ولا مَلَل أبْطـأتُ عـنـك، أبـا بـكْرِ
ولـكـنَّني لمّا أتيـتُك زائراً ... فأفرطتَ في برّي عجزتُ عن الشكر
فـمـلآنَ لا آتيك إلاّ مـسـلّمـا ... أسلّم في الشّهرَين يوماً وفي الشهرِ
فـإنْ زدتني براً تزيّدتُ جَفـوةً ... فـلا نلتـقي حـتى القـيـامـة والحَشْرِ

وهذه الأبيات دون أبيات أبي نواس، لأنَّ أبيات أبي نواس جيدة الألفاظ صحيحةُ المعنى، والّذي أبدعَ في هذا المعنى حُسنَ لفظ واستيفاء معنى البحتريُّ بقوله:

إنّي هجرتك إذ هجرتك وحشةً ... لا العَودُ يُدهبُهـا ولا الإبداءُ
أخـجلتَني بندى يديك فـسوّدتْ ... مـا بيننا تلك اليـدُ البَيـضـاءُ
وقطعـتني بالجـود حـتى إنّني ... مـتـخـوّفٌ أن لا يكونَ لقـاءُ
صلةَ غدتْ في الناس وهي قَطيعة ... عَجَبٌ وبِرٌّ راحَ وهْوَ جَفَاءُ

وقد ردَّه البحتري أي هذا المعنى في شعر آخر وهو قوله:

إيهاً أبا الفضل شكري منك في نصب ... أقـصِرْ فـمـا لِيَ في جـدواك من أربِ
لا أقـبَلُ الدّهْرَ نَيـلاً لا يقـوم به ... شكري ولو كـان مُسـديهِ إليَّ أبي

ولئن كان لأبي زُبَيْد فضيلة السبق وجودة الاختراع فإنَّ للبحتري حسنَ اللفظ واستيفاءَ المعنى، بل هو أحق بهذا المعنى من كلِّ مَن أتى به ولسعيد بن هاشم الخالديّ في هذا المعنى قوله:

ووالله مـا عـارضْتُ جودكَ سـاعةً ... بشعري إلاّ كان أشعر من شعري
كـأنّ عطاياك الجسيـمـة أقْسـمَتْ ... بأني لا أنفكّ مـهـتـضم الشكرِ

وقد ذكر جماعة من الشعراء أنّ الشكر يوازي النعمة، فإن زاد شكرٌ على النعمة كان أفضلَ منها، وإن كان مثلَها لم يكن لأحدهما فضل على الآخر، ومن ذلك قول مسلم بن الوليد، وهذه القطعة التي نذكرها من المعاني المخترعة الجياد، وهي قوله:

سبَقْتَ بمعروف فصلّى ثنائيَا ... فلمّا تمادَى جَرْيُنا صرتَ تاليَا
أبا حَسَنٍ قد كنتَ قدَّمتَ نعمة ... وألْحَقْتَ شكراً ثم أمسكتَ عانيَا
فلا ضَيرَ لم يلحقكَ منّي ملامَةٌ ... أسأتَ بنا عَوداً وأحسنْتَ باديَا
فملآنَ لا يغدو عليك مدائحي ... جوازي نُعمى قد نَضَت أورواجيا
لعلّكَ يوماً أن تُسِيءَ بصاحبٍ ... فتذكُرَ إحساني به وبلائيَا

ما نعرف في معنى هذه الأبيات مثلها.

قال العوّام بن عقبة بن كعب بن زهير بن أبي سُلمى:

وخبِّرتُ ليلَى بالعراقِ مريضةٌ ... فأقبلْتُ من مِصرٍ إليها أعودُها

هذا البيت تناحرَ[1] الشعراء فيه:

فوالله ما أدري إذا أنا جِئتُها ... أأبرِئُها من دائِها أم أزيدُها
ألا ليت شعري هل تغيَّرَ بعدَنا ... ملاحةُ عَينَي أمّ يحيَى وجيدُها
وهل أخلَقَتْ أنوابُهَا بعد جدَّةً ... ألا حبَّذا خُلقَانُهَا وجديدُها
خليليَّ قوماً بالعمامةِ واعصبا ... على كبدٍ لم يبق إلاّ عميدُها
ولَن يلبث الواشون أن يَصدعوا العصَا ... إذا لم يكن صلباً علَى البَرْي عودُها
لقد كنتُ جَلْدا قبل أن تُوقِدَ النوى ... على كبدي ناراً بطيئاً خُمودُها
ولو تُرِكَتْ نارُ الهوى لتضرَّمَتْ ... ولكنَّ شوقاً كلَّ يوم يزيدُها

(١) الأبيات ليست للعوام وحده، وإنما هي لعدد من الشعراء.

وقد كنت أرجو أن تموتَ صَبابتي ... إذا قدُمَتْ آياتُها وعهُودُها

فقد جعلَتْ في حبَّةِ القلب والحشَا ... عِهادُ الهَوَى تُولي بِشوق يزيدُها

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلَى أزورُها ... أرى الأرضَ تُطوَى لي ويدنُو بعيدُها

مِنَ الخَفَراتِ البيضِ ودّ جليسُها، ... إذا ما قضَتْ أحدوثة، لو تعيدها

خليليّ إنّي اليوم شاكٍ إليكما ... وهل تنفع الشكوى إلى من يزيدُها

حَزازات شَوق في الفؤاد وعَبرةً ... أظلُّ بأطراف البنان أذودُهَا

وتحت مجال الدمع حرّ بلابل ... من الشوق لا يُدعَى لخطبٍ وليدُها

نظرتُ إليها نظرةً ما يسرُّني ... بها حُمرُ أنعام البلاد وسُودُها

إذا جئتُها وسطَ النساء منَحتُها ... صدوداً كأنّ النفس ليس تريدُها

ولي نظرةٌ بعدَ الصدود من الجوى ... كنظرة ثكلَى قد أُصيبَ وحيدُها

رفعتُ عن الدنيا المُنى غَير وجهها ... فلا أسألُ الدنيا ولا أستزيدُها

هذه الأبيات من جيد غزل الأعراب ونادره، وفيها أشياء لها نظائر نحن نذكر بعضها، فمن ذلك قوله:

«من الخَفَراتِ البيض» البيت فأحسنُ ما قيل في معناه، وقد تركنا نظائر كثيرة له في صدر هذا الكتاب ونحن نذكر ههنا شيئاً ممّا لم نذكره هناك، فمن ذلك قول بَشّار:

ولها مضحكٌ كغرّ الأقاحي ... وحديث كالوَشْي وَشْي البُرودِ

نزلَتْ في السواد من حبّة القَلْبِ ونالَت زيادة المستزيدِ

ذو الرمّة:

ونِلْنا سِقاطاً من حديث كأنه ... جنى النَّحْل ممزوجاً بماء الوقائعِ

آخر[1]:

لهـا بَشَرٌ مِـثل الحـرير ومنطقٌ رقـيقُ الحـواشي لا هُراءٌ ولا نَزْرُ

آخر:

ظللنا بيـوم عند أمّ مـحلّم نشاوى ولم نشرب طلاءً ولا خَمْرَا

إذا صـمتت عنا أذِنّا بصَمتـها وإن نطقت هاجَت لألبـابنا سُكرا

[مشي النساء والرجال]

وقال ابن مقبل:

يهَزُزْنَ للمـشي أعطافـاً مُنَعَّمـةً هزَّ الرِّياح ضُحىً أغـصـانَ يَبْرِينا

يَمـشِينَ مِثْلَ النَّقَا مـالت جـوانبُهُ يَنهـالُ حـيناً وينهـاه الثَرى حِينَا

هذا من جيّد ما قيل في المشْي وقد ذكرنا قطعة من هذا النوع فيما تقدَّم، ونحن نذكر ههنا أشياء أخر لم نذكرها قبل هذا الوقت، نذكر أموراً شتى من أمور مشي النساء والرجال على ضروب مختلفة مثل مشي السكران وغيره، إذ كان قصدنا أن نُعدِّد في هذا الكتاب قطعة في كل نوع من أنواع الشعر. فمن أحسن ما نعرف، وهو أحق بالتقديم لجودة ألفاظه ورقّة معانيه وإحكام بنيته، أبياتٌ لمُسلم بن الوليد يذكر فيها مشي امرأة، ولا نعرف في هذا المعنى أحسن من هذه الأبيات، وهي:

مـريضـةُ أثناء التَّهـادي كـأنّمـا تخـافُ على أحـشـائها أنْ تقطَّعَا

تَسِيبُ انْسِيَابَ الأيْمِ أخضرَهُ النَّدَى فـرَفَّعَ من أعطافه مـا تَرَفَّعَا

تأمَّلتـهـا مـغـبَرَّةً وكـأنّمـا رأيتُ بهـا من سُنَّةِ البَدْرِ مَطْلَعَا

إذا مـا ملأتَ العينَ منهـا ملأتَهـا من الدَّمْعِ حتى تَنزفَ الدمعَ أجْمعَا

(١) هذا البيت أيضاً لذي الرّمة.

لولا أنّا شرطنا ألا نقدّم في هذا الكتاب إلا أشعار المتقدمين ثم نأتي بعد ذلك بالنظائر للمحدثين والمتقدمين، لكان سبيلنا أن نجعل هذه الأبيات الإمام في هذا المعنى لجودة ألفاظها وصحة معانيها وأنها واسطة القلادة في هذا المعنى والمعاني في صفة المشي كثيرة التصرّف، فمن الشعراء من شبه المشي بتحريك الأغصان، ومنهم من ذكر ذلك بانسياب الحية، ومنهم من وصفه بمرور السحاب، إلى أشياء من التشبيهات كثيرة، ونحن نذكر من كلّ هذه الصفات والتشبيهات ما يعنّ لنا بحول الله وقوته.

العَرْجيّ:

يمشي كما حركت ريحٌ يمانيةٌ ... غُصْناً من البانِ رطباً طلَّه الرَّهَمُ

وإلى هذا نظر البحتري في قوله:

تهتز مثل اهتزاز الغصن أنْعَبَه ... مرور غيث من الوسميّ سحّاحِ

وقال ذو الرُّمَّة:

مشَين كما اهتزَّتْ رِماحٌ فسفَّهت ... أعاليَها مرضَى الرياحِ النَّواعِمِ

آخر:

تأوّدنَ لمّا أن تهادَين نحونا ... كما حرّكتْ ريح العشياتِ خروعا

آخر:

يمشين مشي قطَا البطاح تأوُّدا ... قُبَّ البطون رواجحَ الأكْفَالِ

وأول من شبه مشي المرأة بمشي السكران امرؤ القَيس بقوله:

وإذْ هي تمشي كمشي النَّزِيفِ يصرَعُه بالكثيبِ البُهُرْ

وشبهه المنخل اليَشكُري بمشي القطاة فقال:

ودفعتها فتدافعت ... مَشْيَ القَطاةِ إلى الغديرِ

وقال ابن ميّادة:

إذا الطِّوالُ سَدَونَ المشيَ في خَطَلٍ ... قامَت تَزِيكُ قواماً غيرَ ذي أَوَدِ

تمشي ككُدْرية في الجوف واردةٍ ... تهدي سروبَ قَطا يَسْرِين للثَّمَدِ

آخر وهو جِران العَود:

فلمّا رأين الصبحَ بادرن ضوءَه ... رسيم قطا البطحاء أوهنّ أقطفُ

آخر[1]:

وكأنهنّ إذا أردن خُطَا ... يقلَعْنَ أرجلَهنّ من وَحَلِ

البحتريّ:

لما مَشَيْنَ بذي الأَراك تشابهَتْ ... أعطافُ قضبان به وقدودِ

آخر[2]:

وبيض تَطَلّى بالعبير كأنّما ... يطأن، ولو أعنقن في جَدَدٍ، وَحْلا

هذا بيت جيد في هذا المعنى، لأنه لم يرضَ أن يجعلها تمشي في الجَدَد، وهو السهل المستوي من الأرض، حتى قال: كأنها تطأ الوحلَ وإن هي أسرعت في مشيها.

فأما أول من شبه المشي بمشي السكران للتَّثني والانعطاف فامرؤ القيس في قوله:

وإذ هي تمشي كمشي النَّزِيفِ يصرعه بالكثيب البُهُرْ

أخذه مضرس الفَقعسيّ فقال:

تساكر سلمى من سجية مشيها ... وما سكر سلمَى من طلاء ولا خَمْرِ

وقال الشماخ:

---

(١) هو صالح بن عبد القدوس.

(٢) هو عمرو بن شأس الأسدي.

تَخامَصُ عن بَرد الوشاح إذا مشَتْ تخامُصَ حافي الخيل في الأمعز الوجِي

أخذه جرير فقال:

إذا ما مشَت لم تبتَهِرْ وتأوَّدتْ كما انآدَ من خيل وجٍ غير مُنعَلِ

فأما وصف مشية السكران فمثل قول الشاعر:

اسقِني بالكبير، ياسعدُ، حتى أحسب الناس كلَّهم لي عبيدا
وأراني، إذا مشَيتُ، كأني أعدل الأرضَ خشية أن تميدا

أخذه الآخر فقال:

وما زلت أشربُ حتى اعتمدت على الأرض أعدلُها أن تميلا

ومن جيد ما قيل في هذا المعنى قول الآخر[1]:

سقاني هُذَيلٌ من شرابٍ كأنَّه دمُ الجوف يستدعي الحليمَ إلى الجَهلِ
فما زلتُ أسقى شربةً بعد شربة لعمرك حتى رُحتُ متَّهم العقلِ
خرجت أجوب الأرضَ أركُضُ متنَها إذا هي مالت بي فيعدلُها رِكْلِي
يقدمني طورا أمامي قاصدا ويركض مشي القهقرى مرةً، رِجلي
ترى عيني الحيطانَ حولي كأنَّها تدور، ولو كلَّمتَني قلتَ: ذو خبلِ
فلا العين تهديني، وبالرِجل ما بِها فلأياً بلأي ما بلغت إلى أهلِي

آخر:

وذي غيَد لم يدرِ ما الخمر قبلَها سقيناه حتى صار قيداله السُكْرُ

قد ذكرنا شيئاً من ضروب المشي، وإنّما ذكرنا من كل شيء ليسيرا كما شرطنا، ولو أردنا أن نأتي بما قيل في جميع الفنون بأسره لطال ذلك واتّسع

(١) هو علي بن أبي كثير.

ولكان في شعر البحتري وحده ما يقع في كتاب مفرد، ولابدّ بعد هذا أن نذكر منه شيئاً آخر إن شاء الله.

[معنى التزوج في غير الأقارب]

أعرابيّ يذكر ابنه:

فتىً لم تلدْه بنتُ عمّ قريبة ... فيضوى وقد يضوى سليل القرائبِ
ولكنّما أدّته بنتُ مخجّبٍ ... عظيمِ الرواقِ من خيارِ المَرازبِ
تعلّم من أعمامه اليأسَ والندى ... وورّثه الأخوالُ حسنَ التجاربِ

ومثل هذا قول جرير في ابنه بلال:

إنّ بلالاً لم تشنْهُ أُمُّه ... لم يتناسَبْ خالُه وعَمُّه
فريحُه ريحي وشمّي شمُّه

وإنّما يعتدّ بأنّ خاله وعمَّه لم يتناسبا، لأنّ العرب تزعم أن ابن الغرائب أنجبُ، وأنّ ابن القريبين يكون ضاوياً، ومن أمثالهم[1]: اغْتَرِبوا لا تُضْوُوا، وأنشد:

نَمَت بي من شيبان أمٌّ نزيعة ... كذلك ضرب المنجبات النزائع

وهذا البيت لجرير، وكانت أمُّه نزيعة في بني شيبان. وروي أنّ نوح ابن جرير أنشد هذا البيتَ في مجلس يونس بن حبيب النحويّ ورجل من بني شيبان حاضر المجلس، فالتفت إليه نوح فقال: أخذناها والله ياأخا بني شيبان بأطراف الرماح عَنوةً، فقال له الشيباني: أجَلْ والله، ولولا ذلك لكان أبوك وجدك ألأَمَ من أن ينكحاها عن رضى.

وقال آخر في المعنى الّذي قدمنا ذكره:

(١) وهذا ما يقرره علم الوراثة الحديث.

تجنَّبتُ بنتَ العمِّ وهي قريبةٌ مخافةَ أن يضوى عَليَّ سليلي

وفي مثله لآخر:

أُنذرُ مَنْ كانَ بعيدَ الهَمِّ تزويجَ أولاد بنات العمِّ

وفي مثله لآخر:

تركتُ بُناتِ العمِّ واقتادني الهوَى إلى ابْنَةِ عالي الذكر من آل فارسِ

وقال العتبي: تزوج أهل بيت بعضهم في بعض، فلما بلغوا البطن الرابع بلغ بهم الضعف إلى إن كانوا يَحبُون حبواً لا يستطيعون القيام ضعفاً.

[معنى الجود]

حاتم الطائيّ:

أما ويَّ إن يُصبحْ صَدايَ بَقَفْرةٍ من الأرض لا ماءٌ لديَّ ولا خَمْرُ
تَرَىْ أنَّ ما أنفقتُ لم يكُ ضائري وأنَّ يدي مِمَّا بَخِلْتُ بهِ صِفْرُ
وقد علِمَ الأقوامُ لَو أنّ حاتما أراد ثَراءَ المال كان له وَفْرُ
غَنينا زماناً بالتصعلكُ والغِنَى وكُلاً سقاناه بكأسَيْهما الدَّهْرُ
فما زادنا بأواً على ذي قَرابة غِنانا ولا أزْرَى بأحسابنا الفَقْرُ

[«الديباج الخسرواني» لسحيم عبد بني الحسحاس]

وقال سُحَيْمٌ عبدُ بني الحَسحاس، وكان المفضّل الضبيّ يقول: قصيدة الأسود -يعني سُحَيْماً- ديباجٌ خُسْرُوانيّ:

عُمَيرةَ وَدِّعْ إنْ تجهَّزتَ غاديا كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيا
ليالِيَ تصطاد الرجالَ بفاحِمٍ تراهُ أثيثاً ناعِمَ النَّبْتِ عافيا

وجيدٍ كجيد الريم ليس بعاطلٍ ... من الدُّرِّ والياقوت والشَّذْرِ حاليا

كأنَّ الثُّريَّا علِّقتْ فوق نحرها ... وجَمْرَ غضاً هبَّتْ له الريحُ ذاكيا

أرتْكَ غداةَ البَين كفّاً ومعْصماً ... ووَجْهاً كدينار الهرَقْليِّ صافيا

فما بيضةٌ بات الظَّليمُ يحُفُّها ... ويرفَعُ عنها جؤجؤاً متعاليا

ويجعلها بين الجَناح ودفِّه ... ويُفرشُها وَحْفاً من الزِّفِّ وافيا

بأحسنَ منها يومَ قالتْ: أراحلٌ ... مع الرَّكْب أمْ ثاوٍ لَدَينا لياليا

فإنْ تثوِ لا تُمْلَلْ وإنْ تكُ غاديا ... تُزَوَّدْ وترجع عن عُميرةَ راضيا

ألكني إليها عمْرَكَ الله يافتىً ... بآية ما جاءت إلَينا تهاديا

تَهادِي سَيلٍ في أباطحَ سهلةٍ ... إذا ما علا صَمْداً تفرَّع واديا

فَفاءَتْ ولَمْ تَقضِ الَّذي أقبَلتْ به ... ومن حاجة الإنسان ما ليس قاضيا

وبِتْنا وسادانا إلى علَجانةٍ ... وحقفٍ تَهَاداهُ الرِّياحُ تهاديا

تُوَسِّدُني كفّاً وتثني بمِعْصَمٍ ... عليَّ وتَحنُو رِجْلَها منْ ورائيا

أميلُ بها مَيلَ النزيف وأتَّقي ... بها البردَ والشَّفَّانَ من عن شمَاليا

فما زالَ بُردى طيِّبا من ثيابها ... إلى الحَول حتَّى أنْهَجَ البُرْدُ بالِيا

وهبَّتْ شَمالٌ آخرَ اللَّيل قُرَّةٌ ... ولا ثَوبَ إلاّ درعُها ورِدائيا

ألا أيُّها الوادي الَّذي صَمَّ سَيلُه ... إلَينا نَوى ظَمياءَ حيِّيتَ وادِيا

ألا تادٍ في آثارهنَّ الغوانيا ... سُقِينَ سِماماً ما لَهنَّ وما لِيا

تجمَّعْنَ من شتَّى ثلاثاً وأربَعاً ... وواحدةً حتَّى كملْنَ ثمانيا

يَعُدْنَ مريضاً هُنَّ هيَّجْن داءَه ... ألا إنّما بعضُ العَوائد دائيا

وراهُنَّ ربّي مثلَ ما قد وَرَيْنَني ... وأحْمَى على أكبادهنَّ المكاويا

أشارتْ بمِدراها وقالت لأختها ... أعبدُ بني الحَسْحاس يُزجي القوافيا

رأتْ قَتَبـاً رثّاً وسـمل عبـاءَة ... وأسـودَ ممّا يملكُ النّاسُ عـاريا

فلو كنتُ وَرْداً أبيضاً لَعشقْتَني ... ولكنَّ ربّي شـانَني بسـواديا

يُرَجِّلْنَ أقـواماً ويتـركْنَ لِمتّي ... وذاك هوانٌ ظاهرٌ قـد بداليـا

تحَدَّرْنَ من تلك الهضـاب عـشيّةً ... إلى الطلح يبغين الهوى والتَّصَابيا

وقُلْنَ: ألا فـالْعَبْنَ مـا لم يَرُدُّنا ... نُعـاسٌ ومـا لم يُرسِلوا لِيَ داعيَا

وقُلْن لصـغراهنّ أنت أحـقُّنا ... بطرحِ الرِّداء إن أردتِ التَّباهيـا

تَمَارَيْن حـتّى غـلب نجم مُكبِّد ... وحـتّى بدا النجم الّذي كـان تاليا

وحتّى أنارَ الفجرُ أبيضَ ساطعاً ... كـأنّ علَى أعْلاهُ ريطا شـآميـا

فـأدْبَرْنَ يَخْفِضْنَ الحديث كـأنّمـا ... قـتلْنَ قـتيـلاً أو أتَين الدَّواهيـا

وأصبَحْنَ صَرْعَى في الحِجال كأنّما ... شـربْنَ مُدَامـا أو أو سَرَيْنَ لياليـا

قال المفضّل: كان عبد بني الحسحاس أسود طمطمانياً إلاّ أنّه كان حسن الشعر رقيق الألفاظ وأُتِيَ به أولَ ما قال الشعر عثمانُ بن عفّان فقيل له: اشْتَرِه فإنّه شاعرٌ، فقال: لا حاجة لي فيه؛ لأنّ العبد الأسود إذا كان شاعراً وجاع هجا مواليه، وإذا شبع شبَّب بنسائهم وهو آخر أمره مقتولٌ. وكان الأمر كما قال. وسأل عمر بن الخطّاب يوماً أهل مجلسه عن الّذي يقول: «كفى الشَّيب والإسلامُ للمرء ناهيا» فقيل: عبدُ بني الحسحاس، فقال: لو قدَّم الإسلامَ على الشّيب لفرَضتُ له. وقصيدته هذه التي كتبناها فقد تناول منها ألفاظاً كثيرة، من ذلك قولُه:

ليـالِيَ تصطاد القلوب بفـاحم ... تراه أثيـثـا ناعم النَّبت عـافـيـا

أخذه من قول الآخر[1]:

ليـالِيَ تصطاد الرِّجـالَ بفـاحمٍ ... وأبيضَ كـالإغـريضِ لم يتـثلَّمِ

(١) هو النابغة الجعدي.

وهذا البيت أجود من بيت سحيم عبد بني الحسحاس لأنَّ العبد ذكر في بيته الشَعر فقط وهذا ذكر في صدر بيته الشعر ، في عجزه الثغر وهما متقاربان ، ومثله لامرئ القيس :

لياليَ تصطاد الرِّجال بفاحمٍ أثيثٍ كقنو النّخلة المتعثكلِ

وأخذ قوله أيضاً «وجيد كجيد الرّيم ليس بعاطل» البيت من قول امرئ القيس :

وجيد كجيد الرِّيم ليس بفاحش إذا هيَ نَصَّتْه ولا بمعطَّلِ

وأخذ قوله «كأنّ الثريا علّقت . . .» البيت من قول الآخر[1] :

كأنّ الثُّريا عُلِّقتْ فوق نَحْرِه وفي جيده الشعرى وفي وجهه القَمَرْ

إذا قيلت العَوراءُ أغضَى كأنّه ذليلٌ بلا ذُلٍّ ولو شاءَ لانتَصَرْ

وأخذ قوله : «فما بيضة بات الظليم . .» البيت وقوله «ويجعلها دون الجناح . .» البيت بعده من قول أبي دُؤاد الإيادي :

فما بيضة بات الظَّليمُ يُكِنُّها بأجرع مِنْ يَبْرِيْنَ حرج نِعامُها

ويُرْخِي جناحَيه عليها ويتَّقي رياحاً من الجوزاءِ طلاً رِهامُها

وأمّا قوله «أشارت بمدراها . . .» البيت فمثل قول عمر بن أبي ربيعة :

أشارت بِمِدراها وقالتْ لأختِها : أهذا المُغيْريُّ الّذي كان يُذكَرُ

ومثل قول أبي دَهبل :

أشارت بمدراها وإيّايَ حاولَتْ وقالتْ لِتربيْها : عليَّ توقَّفَا

والّذي لا نشكّ فيه أنّ عمر بن أبي ربيعة وأبا دهبل أخذا هذا المعنى من العبد لأنّه أقدمُ منهما .

---

(١) هو أسيد بن عنقاء الفزاري .

[معنى مشي النساء]

وأمّا قوله «ألكني إليها عمرك الله . . .» البيت وقوله «تهادي سَيل . .» البيت بعده فهو حسن في مشي النساء وقد أخذه جماعة . فممّن جوّد في أخـــذه وأبدعَ وزاد زيادةً بيّنةً وأتى به مع الزيادة الكثرة باللفظ العـــذب والاستعارة الجيّدة والتشبيه المليح ابنُ الروميّ في قوله :

جـاءت تَدَافَعُ في وشيٍ لهـا حَسَنٍ تـدافُعَ المـاءِ فـي وشْيٍ مـن الحَبَبِ

وقد ذكرنا أكثر ما قيل في مشي النساء بل نظنّ أنّا قد استغرقنا سائر ما قيل فيه في مواضع من هذا الكتاب فلذلك لم نذكر هنا منه شيئاً .

[معنى وصف العناق]

وأمّا قوله «توسّدني كفّا وتثني بمعصم» البيت فهو مليح في وصف العناق . على أنّ للمُحْدَثين في هذا المعنى صفات جوّدوا فيها وأحسنوا غاية الإحسان قد ذكرنا بعضها فيما تقدّم . وممّا لم نذكره هناك قولُ ابن الرّوميّ :

ربَّمـــا الْتَفَّتْ إلى الصُّبْحِ لنا ســـــاقٌ بســـــاقِ

في نِقـــابٍ مِن لِثـــام ورِداءٍ مـــن عِنـــاقِ

وقول ابن الروميّ هذا أتمّ في المعنى وأحسن في اللفظ والزيادة فيه لا تُخيلُ لحسن الاستعارة، ومثله في الحسن له أيضاً :

وكِلانـا مُرْتَدٍ صـــــاحِبَهُ كارْتداءِ السيف في يوْمِ الوَغَا

نتـــــساقى الرِّيقَ ممّا بَيْنَنَا زَقَّ أُمَّاتِ الـقَطَا زُغْبَ الـقَطَا

وممّن جوّد في ذكر العناق بّشار بقوله :

فـــبِتُّ بهـــا لا يَخلُص الماءُ بيننَا إلى الصُّبح دوني حـاجبٌ وسـتُورُ

وقد أخذ عليّ بن الجَهْم من بّشار فقال :

سقَى الله ليلاً ضمَّنا بعد هجعَة وأدنَى فؤاداً من فؤاد معذَّب
فبِتنا جميعاً لو تُراق زجاجةٌ من الرّاح فيما بيننا لم تسرَّبِ

ومن مليح ما قيل في العناق قولُ ابن المعتزّ:

كأنّني عانقتُ ريحانةً تنفَّستْ في ليلها البارِدِ
فلو تَرَانا في قميص الدُّجَى ظننْتَنا في جسَدٍ واحدِ

وإلى هذا أشار ابن طباطبا في قوله:

وليلٍ نصرتُ الغيَّ فيه على الرُّشْدِ وأعدَيتُ حالَ القُربِ منه على البُعْدِ
وضيَّقْتُ فيه من عناق مُعانقي فظنَّ وِسادي أنّني نائمٌ وَحْدِي

وللبحتريّ في العناق أيضاً:

ومن قُبَلٍ قَبْل التَّشاكي وبعدَه نكادبها من لذّة اللّثم نَشْرَقُ
وقد لَفّنا وشكُ الفراق وضَمَّنا عناقٌ على أعناقنا ثمّ ضيّقُ

ليس يجوز أن نستقصي جميع ما قيل في الباب إذا عنّ في موضع واحد، لأنّه لابدّ أن تَرَدَّدَ في مواضع؛ فلذلك نترك نظائر كثيرة احتياجاً إليها لموضوع آخر.

[معنى سؤال قريبي العهد بالغنى]

أعرابي[1] وسأل قوماً قريبي العهد بالغنَى فحرَموه فقال:

مدَحْتُ عُروقاً للنَّدى مصَّت الثَّرَى قريباً فلم تهمُمْ بأنْ تتزعْزَعَا
بقائذَ بُؤس ذاقت الفقْرَ والغنَى وحلَّبت الأيّامَ والدَّهْرَ أضْرُعَا
سقاها إلهُ النّاسِ سجلاً على الظَّمَا وقد كَرَبَتْ أعناقُها أنْ تقطَّعَا

(١) هو أبو زيد الأسلمي.

فضمَّتْ بأيديها علَى فَضْلِ مائِها ... من الرِّيِّ لمّا أوشكَتْ أنْ تضلَّعَا
وزهَّدَها أنْ تفعلَ الخَيرَ في الغِنَى ... مُقاساتُها من قبله الفقْرَ جُوَّعَا

هذه الأبيات طريفة المعنَى، ومثلها قولُ الآخر:

سألْنا أناساً حاجةً بَخِلوا بها ... ولم يكُ ذا بعدٍ مداه عسيرُ
وهَيهاتَ أنْ يأتيكَ بالخيرِ سائلٌ ... بساقيَهِ للكلبِ العَقورِ عقورُ

تزوج بعضُ الأعراب امرأةً من الحضر فلَمْ تُرْضِه فقال:

لَعَمري لأعرابيّةٌ في مِظلّةٍ ... تظلّ بروَقَي بيتها الرّيح تخفِقُ
أحبُّ إلينا من ضِناكِ ضفِنَّةٍ ... إذا وُضِعَتْ عنها المراويحُ تَعرَقُ
كبطّيخة البستان يُرضيك ريحُها ... صحيحاً ويبدو خبثُها حين تُفتَقُ

مثله لآخر:

عَدِمت نساءَ المصرِ إنّ نساءَهُ ... قِصارٌ هواديها عِظامٌ بطونُها
فلا تُعْطِ في مِصريّةٍ نصفَ دانقٍ ... وإنْ ثقُلَتْ أردافُها ومتُونُها

ومثله:

تقولُ له راهيّةٌ ذات كدْنةٍ ... منَفَّخةُ الجَنْبَينِ غبغبُها شبْرُ
تعالَ ودَعْ نجداً وطِيبَ ترابه ... إليَّ فلا نقدٌ عليك ولا مهْرُ
فهذِيَ خُدّامٌ وكأسٌ مُدامةٌ ... وهذِيَ أنماطٌ ومنقوشةٌ صفْرُ
فقلتُ لها: متَّتْكِ نفسُكِ حاجةً ... كذُوبُ اللقاء دونَها جبلٌ وعْرُ

مثله لأعرابيّ أسديّ:

قالتْ له مزّاحةٌ ذاتُ بُرقُعٍ ... وأخرَى أدلَّتْ بالملاحةِ سافرُ
أنحن -فهاتِ الحقَّ- أحسنُ أوجُهاً ... ودلاً أمِ اللاتي لهنَّ الأباعِرُ
فقلتُ: نساءُ الحيِّ أحسنُ أوجُهاً ... وأطيبُ نشراً حينَ تفنَى الذّرائرُ

طلّق بعضُ الأعراب امرأة كانت له فتزوّجها بعض بني عمّه، وكان بينهما عداوة فقال زوجها الأوّل، وكان اسم الّذي تزوّج بها فروة:

هنيئـاً على مـا بيننا من عـداوةٍ ... لفـروةَ وادٍ حلَّ بطحـاؤُه سَهْلُ
شـددتُ عليـه الكور ثمّ ركـبتُهُ ... لفـروة حتّى ذلَّ واستَوطنَ الرَّحْلُ

[معنى الأيمان الكاذبة]

أعرابي[1]:

أتتني سُلَيمٌ قَضُّهـا وقَضـيـضُهـا ... تُمَسِّحُ حَولي بالبـقـيع سِبـالَهـا
يقولون ليَ: احلفْ، قلتُ: لستُ بحالفٍ ... أُخـاتلُهم عنهـا لكيـمـا أنالَهـا
فـفـرَّجتُ هَمَّ النَّفس عنّي بحلفَةٍ ... كـمـا شقَّتِ الشَّقْراءُ عنها جِلالَهـا

وجدنا لهم في الأيمان أشياء كثيرة يطول بها الكتاب إلاّ أنّ هذا النّوع الواحد منها قليل ونحن نذكر بعض ما قيل فيه دون غيره لنذكر غيره في مواضع أخر إن شاء الله فمن ذلك[2]:

سألوني اليمينَ فارتَعْتُ منها ... ليُغَرَّوا بذلك الارتياعِ
ثمّ أرسَلْتُها كمنْحَدرِ السَّيلِ تَدَلَّى من المكان اليَفاعِ

وفي اليمين لآخر:

وقالوا: اليمينَ، فمَنْ لي بذا ... كَ يالَيْتَهم يَطَّبونَ اليمينا
فأمْنَحَهم حلفةً لذّةً ... تنَجّي المَدِين وتُرْدِي المُدِينا

ولآخر[3]:

---

(١) هو الشماخ الذبياني.
(٢) البيتان للبحتري.
(٣) هو أخيل بن مالك الكلالي.

إذا حلَّفوني بالإله منَحتُهُم ... يميناً كسحق الأتحميّ الممزَّقِ
وإنْ حلَّفوني بالعتاق فقد درَى ... دُهَيمٌ غُلامي أنّه غيرُ مُعتَقِ
وإنْ حلَّفوني بالطَّلاق رددتُها ... كأحسَن ما كانَتْ كأنْ لَمْ تُطَلَّقِ

ولآخر:

يمين كمثل مواسي المنَى ... كشفتُ بُها كربةَ الصَّاحبِ
عملتُ بُها في نجاة المَدِين ... وأعملَ في توبة التَّائبِ

ابن الدُّمينة:

وما ماءُ مُزْنٍ في هضابٍ يحفُّها ... مناكبُ من شُمِّ الذُّرَى ولُهوبُ
بأطيبَ من فيها اغتباقاً وإنّني ... بشَيمٍ إذا أبصرتُه لَمُصيبُ

[معنى صفة الفم بالظن والتفرس]

أمّا هذا البيت الأخير فقد أكثرت الشعراءُ فيه وما جوّد ابن الدمينة أخذَه ونحن نذكر أوّل من أتَى به وبعضَ مَن جوّد وأحسنَ في تناوله فأوّلُ من أتَى به النابغة في قوله:

زعمَ الهُمامُ بأنَّ فاها طيِّبٌ ... عذبٌ إذا قبَّلْتَه قلتَ ازْدد
زعمَ الهُمامُ ولم أذُقْهُ بأنَّه ... يُشفَى ببَرْدِ لَثاتِهِ العطِشُ الصَّدِي

وأخذه المجنون فقال:

وتجلو بمِسْواكِ الأراكِ مُفلّجاً ... له أُشُرٌ عذبٌ متَى ذاق ذائقُ
وما ذُقتُهُ إلاّ بعَيْني تفرّساً ... كما شِيمَ في أعلَى السحابةِ بارِقُ

مثله[1]:

---

(١) لسليك بن السلكة.

وتجلو بمسواك الأراكِ مفلّجا خليقَ الثنايا بالعذوبة والبَرْدِ

أخذه بشّارٌ فقال:

ياأطيبَ النّاسِ ريقاً غيرَ مُختبَرٍ إلاّ شهادةَ أطرافِ المساويكِ

وقد نظر إليه البحتريّ فقال:

وتعجّبَتْ من لَوعتي فتبسَّمتْ عن طيّباتٍ لو لُثِمنَ عذابِ

وشبيه به قولُ ابن المعتزّ:

فلمّا انتهَى قولُ السّلام وردُّه لَفظنَ حديثاً عطّرتْهُ المَلافظُ

هذا البيت ليس هو المعنَى نفسه وهو تجوُّزٌ فيه، ومثلُه لأبي تمّام:

تُعطيك منطقَها فتعلَمُ أنّه لجنى عُذوبتِه يمرُّ بثَغْرِها

وأمّا مَن جوّدَه وأحكمَه واحتجّ فيه بحجّة لا تُدفَعُ فأبو تمّامٍ بقوله:

بأبي فمٌ شهدَ الضَّميرُ له قبلَ المذاقة أنّه عذْبُ

كشهادةٍ لله خالصةٍ قبلَ العيان بأنَّه ربُّ

وقال الراجز:

وبارد عذْب المذاق أشْنب ما ذقتُه وليس ظنّي يكذبُ

مثله لبشّار:

تجلو بمسواكها عن باردٍ رَتِلٍ كذاك خبَّرَني مسواكُها الأَرِجُ

مثله لحمّاد عجرد:

وأغرُّ ذو أشُرٍ وما إنْ ذقتُهُ شهدَتْ بذاك عذوبةُ المسواكِ

وهذا مثل معنى بيت بشّار إلاّ أنّ بيت بشّار أجود وأصحُّ وأخذه بعض الكتّاب فقال:

يخبِّرنا المسواكُ عن طيبِ ثَغرها ... بما لم يخبِّرْنا به قطُّ ذائقُ

ومثله لابن الرّوميّ:

وفم بارد المذاقة بالظَّنْ ... نِ ولم يُختَبَرْ ولم يُذَقِ

وأخذه عُمارة بن عَقيل فقال:

وأشهدُ عند الله يوم لقائه ... بأنَّ ثنايا أمِّ سعدٍ لَطَائمُ

وما ذاقَها غيري ولا أنا ذُقْتُها ... ولكنَّني بصحّة الظَّنِّ عالِمُ

وهذا معنى يطول ويتّسع متى آردنا استغراقه ولابدّ من ذكره في مواضع إن شاء الله.

وقال ابن الدمينة:

ذكرتُكِ والحدّادُ يضربُ قَيدَه ... على الساقِ من عَوجاءَ بادٍ كعوبُها

فقلتُ لراعي السّجن والسجنُ جامعٌ ... قبائلَ من شتَّى وشتَّى ذنوبُها

ألا ليتَ شِعري هل أزورنَّ نِسوةً ... مضرَّجةً بالزّعفران جيوبُها

وهلْ ألْقَيَنْ بالسِّدْر من أيمَن الحِمَى ... مصحَّحةَ الأجسام مَرضَى قلوبُها

بهنّ من الدّاء الّذي أنا عارفٌ ... ولا يعرِفُ الأدواءَ إلاّ طبيبُها

عليهنّ مات القلبُ موتاً وجانبَتْ ... بهنّ نَوىً غِبٌّ أشِبَّ شعوبُها

قال ابن الدُّمَيْنَة، وزعم الزبير أنها لمزاحم بن عمرو السلولي:

أشاقَتْكَ الهوادجُ والخُدورُ ... وبَينُ الحيِّ والظُّعُنُ البُكُورُ

وبِيضٌ يَرتَمِين إذا التَقَينا ... قلوبَ القَومِ أعيُنُهنَّ حُورُ

هِجانُ اللَّونِ أبكارٌ وعُونٌ ... عليهنّ المجاسِدُ والحَريرُ

إذا اطَّرَدتْ فنونُ الرّيحِ فيه ... توَشَّى المِسكُ يأرَجُ والعَبيرُ

بدَوْنَ كـــأنّهنّ غَمـــامُ صَيفٍ تهلّلَ واكْفـــهـــرَّ له صَبِيـــرُ
فـلـمّا أن ركـبنَ تـنـكّبْنَا جَوافِلُ مِن ذوي الحـاجـات زُورُ
نعم، فـبـدا المجَمْجَمُ من فـؤادي وكـــاد القلبُ من وجـدٍ يطيـرُ
يكلّفُني علَى الحـــدثان قلبي نوىً للحيّ مطلبُهـا عـسيـرُ
علَى حين انْدَمَلْتُ وثاب خلمي ولاح علَى مـفـارقِيَ القَتِـيْرُ
كـــأنّ القلبَ عند ديار سلمَى سليمٌ أو رهينُ دمٍ أسـيـــرُ
كـذلكَ من أُمـامـةَ قـبل هذا ليـالِيَ أنتَ مـقـتـبَلٌ غـريرُ
إذا المتـهـانفُ الغُرنُوقُ يهـوَى زيـارتَنـا ويـكـرهـنـا الـغَيُورُ
وعند الغـانيـات لنا دُيونٌ وفي مأوَى القلوب هوىً ضميرُ
تُريك مـفلّجـاً عـذْبَ الثّنايا كلَون الأُقـحـوان له أُشـورُ
وعَينَي ظـبـيـةٍ بجواء رمْلٍ يضُوع فـؤادَها رَشأٌ صـغـيـرُ
فـلـو تُوليـنَني لَعـلِمْتِ أنّي بمعـروفٍ لفـاعله شكورُ
أُديمُ لـك المـودّةَ إنّ وصْلـي بأحسنِ مـا ظننْتِ به جـديرُ
وأمنحُكِ الّتي لا عـارَ فـيـهـا كـأنّ نسـيـبَهـا بُرْدٌ حَبِيـرُ
أتـانـا بـالمَلا كَلِمٌ حَدَاهُ حـجـازيٌّ بطيّتِه فَخـورُ
عـــدوّ لا يـنـامَ ولا تَرَاه ولو أبدَى عـداوتَه بصـيـرُ
فلو جـاوبْتَني لقَصَرْتَ عنّي وأنتَ من المَدَى ناءٍ حـسـيـرُ
ولو عـادَدْتَني لوجـدتَ قـومي هم الأشـراف والعـدد الكثـيـرُ
إذا الجـوزاءُ أردفت الثُّريَّا وعـزّ القَطْرُ وافـتُـقـد الصَّبِيـرُ
وباتتْ في مكامنهـا الأفـاعي ولـم يتكلّمِ الكلْبُ العَقـورُ
وجـدتَ بقـيّةَ المعـروفِ فـينا مـقـيـمـاً مـا ثوَى بمنىً ثَبـيـرُ

[معنى وشاية الطيب والحلي]

أمّا قوله «إذا اطّردت فنون الرّيح فيها . .» البيت فكثيرٌ جداً للمتقدّمين وأكثر منه للمحدثين وقد افتنّت الشعراء في هذا المعنى وخلطوا مع وشايا الطّيب جرس الحُليّ وغير ذلك ممّا سنذكر بعضه في هذا الموضع وندعُ بعضه لموضع آخر، فمن ذلك قوله[1]:

طرقَتْني في خُفْيَةٍ واكْتِتامِ ... من رقيبٍ وحاسدٍ وغَيورِ
فأبانَ الحُليُّ والطّيبُ عنّا ... سترَتْهُ من أمْرِنا المشهورِ
ليس شيءٌ أعْدَى لنا من يَوا ... قيت عليها ومِسكِها والعبيرِ

مثله[2]:

وبنَفْسي شادنٌ خَرِقٌ ... مُلبَساً من حُسنه وشُحا
وإذا ما زار مُكتَتِماً ... نمَّ عنه المسكُ فافتضَحا

مثله[3]:

لَهَا أرَجٌ إذا زارَتْ ... يُنَبِّهُ كلَّ من رقَدَا
فما تخفى زيارتُها ... إذا ما حاسدٌ هجدا

وشبيه بهذا وإن لم يكن هو بعينه قولُ التُّميريّ:

تَضَوَّعَ مِسكاً بَطْنُ نَعمانَ أنْ مشَتْ ... بِهِ زينبٌ في نِسْوَةٍ خَفِراتِ

ومثله قول الأعمَى مولَى هشام بن عبد الملك:

ليت شعري من أين رائحةُ المِسْـ ... ـكِ وما إنْ إخالُ بالخَيفِ إنْسي
حين غابَتْ بنو أميَّةَ عنهُ ... والبهاليلُ من بني عبدِ شمسِ

(١) لابن أبي أمية.
(٢) لبشار.
(٣) لابن أبي أمية.

فأمّا الّذي أبدع وجوّد في المعنَى الأوّل فالبحتريّ بقوله:

فكان العبيرُ بها واشيا ... وجرسُ الحُليِّ عليها رقيبا

ما أحسنَ ما استعار حين جعل رائحة الطّيب واشياً بها وصوت الحُليّ رقيباً عليها، والّذي أحسن أيضاً فيه كلّ إحسانٍ ابنُ أبي زرُعَة في قوله:

فاستكتمتْ خلخالَها ومشتْ ... تحتَ الظّلامِ به فمما نطقا

حتّى إذا ريح الصّبا نسمتْ ... ملأَ العبيرُ بسرِّنا الطرقَا

ما أبْينَ حذقَ هذا الشّاعر في هذَين البيتَين إذْ ذكر أنّها استكتمتْ خلخالَها سرَّها فلم ينطق لأنّ من سبيلهم مدح الامرأة بصمت الخلخال والسّوار لامتلاء السّاق والذراع وجولان الوشاح لدقّة الخَصْر فذكر أنّها استكتمتْ خلخالها فلم ينطق لامتلاء ساقها فلمّا هبّ النّسيم ذاع سرُّ زيارتها لرائحة الطّيب في الطّريق التي مشتْ فيها، ومثله لمُسلم:

إذا ما مشتْ خافتْ نميمةَ حَلْيِها ... تُداري علَى المشْيِ الخلاخلَ والعطْرَا

ومن مليح هذا وجيّده قولُ الصّنوبريّ:

قُلْ لطَيفٍ سرَى فحيّا المطيّا ... مُغرَماً بي وكان قبلُ خليّا

هكَذا كلّما مضَى اللّيلُ تَمْضي ... ليتَ ذا اللّيلَ لا يُطيق مُضيّا

كلّما زُرتِ زورةً في خفاءٍ ... وأرَى البدرَ لا يكون خفيّا

نبّهَ الطّيبُ والحُليُّ عليَنا ... فاهْجُرِي الطّيبَ طيبَها والحُليّا

ومثل هذا للعبّاس بن الأحنف وقد جوّد:

قلتُ: الزّيارةَ، قالت وهْيَ ضاحكةٌ ... اللهُ يعلَمُ فيها كنْه إضْماري

فكيف أصنَعُ بالواشينَ لا سَلِمُوا ... والعنبرُ الوردُ يأتيهِمْ بأخْباري

مثله للنّوبختي:

إذا كـــتَمتْ زيارتَهـــا أذاعَ الطّيبُ مـا كـتـمَتْ
فـــأنطقَ السُنَ الواشيْنَ لا كـــانتْ ولا نطقَـتْ

وأجود من كلّ ما ذكرنا قول البعيث :

إذا هيَ زارتْ بعدَ شَحْطٍ منَ النَّوَى وشَى نشرُها لا مسكُها وعبيرُها

هذا جعل نشرَها أذكَى منَ المسك والعبير وهذا النّهاية، وما أقربَهُ من قول امرئ القيس وإنْ لم يكنْ هذا المَعنَى بعينه :

ألَمْ ترَ أنّي كلّمـا جئتُ طارقـاً وجـدتُ بُهـا طيبـاً وإنْ لم تَطيَّبِ

وقال ابن الدُّمينة :

أبلغْ سـلامـةَ أنّي لستُ ناسيهـا ولا مُطيعٌ بظَهْرِ الغَيب واشيهـا
ياليَـتنَا فَرَداً وَحْشٍ نعـيشُ مـعـاً نَرْعَى المتـانَ ونَخفَى في فـيافيـهـا
ولَيتَ كُدْرَ القَطَا حلّقْنَ بي وبهـا دون السَّمـاءِ فنَخفَى في خَوافيـهـا
قـد حـالَ دُونَ سُلَيـمَى مـعـشرَ قَزَمٌ وهم -على ذاك- دُوني من مَواليهـا
أكـثَرْتُ مِن «ليـتَني» لو تـكـان ينفعُني ومِن مُنَى النَّفْسِ لو تُعطَى أمـانيـهـا
إنّ الـفـــؤادَ لَيَهْوَى أنْ أُناقلَهـا رَجْعَ الكلامِ وإنْ عـارَتْ أدانيـهـا
ودُونَهـا قـــومُ سَوءٍ يَنْذرون دَمي فـالموتُ إتيـانُهـا والموتُ هَجْريُهـا
ياقـاتَلَ اللهُ سُلْمَى كـيف تُعْجبُني وأخبرُ النّاسَ أني لا أُبالِيهـا
إنّي ليـأخذُني من حبِّهـا عَرَصٌ عند الصَّلاةِ فـأنسَى أنْ أصلّيهـا
لَنَظرةٌ من سُلَيـمَى اليـومَ واحـدةٌ أشهَى إليّ من الدُّنيـا بِمـا فـيـهـا

[معنى أماني المحب للتفرد بالحبيب مع البلاء]

أمّا قوله «ياليتنا فردا وحش . . .» البيتين فهو معنى قد اشترك فيه عدّة

من الشعراء وما أقلَّ زيادةَ بعضهم على بعض فيه، أكثرُهم يسأل ربَّه أن يجعله والّتي يحبّ جملَين أجربَين يُطرَدان عن المياه ويُقذَفان بالحجارة عن المناهل وبعضُهم يتمنَّى أن يكون غزالا والّتي يهوَى ظبيةً في برِّيّة خساف حيث لا يَراهما أحدٌ ولا يُسمَع لهما خبرٌ، وهذا أصلح أمنيةً من الأوّل إلى أشياء كثيرة من هذا النّوع ونحن نذكر بعضها، فممَّن تمنَّى أن يكون جملاً والتي يحبّ ناقةَ الفرزدقُ:

ألا ليتَنا كنّا بَعيرَين لا نَرِد ... علَى منهلٍ إلاّ نُشَلُّ ونُقذَفُ
كِلانا به عَرّ يُخاف قِرافُه ... علَى النّاس مطليُّ المشاعر أخْشفُ
ويالَيتنا كنّا جميعاً بقفرةٍ ... من الأرْض لا يَجتازُها المتعسِّفُ
ولا زاد إلاّ فَضلتان سُلافة ... وأبيضُ من ماءِ المدامة قرقَفُ
وأشلاء لحمٍ من حُبارَى يصيدها ... إذا نحن شئنا صائد متألفُ

ومثله لآخر[1]:

ألا ليتَنا والله من غير ريبةٍ ... بعيران نَرعَى القَفر مُؤتلفان
إذا ما أتَينا حاضراً صاح أهلُه ... وقالوا: بعيرا عُرّةٍ جَربان

فأمّا الّذي أشبَع هذا المعنَى وتمنَّى فيه الأماني الطريفة كُثيِّر بقوله:

ألا ليتَنا ياعَزّ كنّا لذي غِنىً ... بعيرَين نَرْعَى في الخَلاء ونَعْزُبُ
نكونُ بعيرَي ذي غِنىً فيُضيعُنا ... فلا هو يَرعانا ولا نَحْنُ نُطلَبُ
كِلانا به عُرٌّ فمَن يرَنا يَقُلْ ... علَى حُسنها جَرْباءُ تُعْدَى وأجْرَبُ
إذا ما وردْنا منهلاً صاحَ أهلُه ... علَينا فما نَنْفكُّ نُرْمَى ونُضْرَبُ
وددْتُ وبيتِ الله أنّك بَكْرَةٌ ... هِجانٌ وأنّي مُصعَبٌ ثُمَّ نَهْرُبُ

---

(١) هو عروة بن حزام.

والّذي دعاَ الشعراء إلى هذه الأماني حتّى تمنّوا أن يكونوا جمالاً جربة وغير ذلك من الأماني الّتي لا يُريدها النّاس التفرّد وأن لا يأخذهم أحدٌ للجرب الّذي بهم لأنّ العرب لا تُبغض شيئاً بغضَها الجَرب ولا تحذَر من شيء حذرَها منه، وقال آخرُ في هذا المعنَى وإن لم تكن أمنيَّته أن يجعله الله جملاً أجربَ ومَن يهوَى ناقةً جرباءَ:

ألا ليتَ أنّي والّتي لا تُحبُّني ... وحبّي لها باقٍ إلى يوم أُرمَسُ
غزالانِ جوّالانِ في صَحْنِ مَهْمَهٍ ... وليس بِه من سائر النّاس مُؤنِسُ

مثله:

ألا ليتَنا يامَيُّ في رأس شاهقٍ ... من الطَّود لا يعلُوه كلُّ سحابِ
ويُسدِي لنا ربُّ السَّموات رِزقَنا ... فأرزاقُه تأتي بغير حسابِ

مثله لآخر:

ليتَ أنّي والّذي أهْوَاهُ في فجٍّ عميقِ
حيثُ لا يبلُغُنا الرَّعدُ ولا لَمعُ البُروقِ
لا ولا يعرِفُ مَخلُو ... قٌ لنا سمتَ طريقِ
زادُنا طِيبُ صبوحٍ ... من لثسامٍ وغَبوقِ

فذكرنا من هذا المعنى ها هنا ما فيه مقنَع ولابدّ من ذكرنا منه في أضعاف الكتاب.

[معنى ذكر الحبيب في الصلاة]

أمّا قول ابن الدمينة «إنّي ليأخذني من حبّها...» البيت فهو مأخوذ من قول ذي الرّمّة:

أُصَلّي فـمـا أدري إذا مـا ذكَرتُهـا أثنتَين صلَّيتُ الضُّحَى أم ثمـانيـا
ومـا بي إشـراك ولكنَّ حـبَّهـا مكان الشّجا أعيا الطبيبَ المُداويا

وإليه نظر ابن الأحنف بقوله :

أُصلّي فأهْذي في الصّلاة بذكرِها لِيَ الويلُ مِمّا يكتبُ الملَكانِ
أريدُ لأنْسَى ذكـرَها فكأنّمـا تمثَّلُ لِي فَوزٌ بكلّ مكـانِ

هذا البيت بأسره لكُثَيِّر وهو :

أريدُ لأنْسَى ذكـرَها وكـأنّمـا تُمثَّلُ لِي ليلَى بكلِّ سبيلِ

وما ندري ما دعا العبّاس مع ظرفه وأدبه وصلاحيَة شعره إلى أخْذِ بيت كُثَيِّر بأسره من غير تضمين ولا جهل منه .

قال ذو الرُّمَّة :

وقـفنا فسلّمْنا فكادت بمُشْرِفٍ لعرفان صوتي دِمنةُ الدّار تَنطقُ
تجِيشُ إليّ النَّفْسُ في كلّ مَوقفٍ لميٍّ ويرتاعُ الفؤاد المشوّقُ
وإنسانُ عَيني يحسِرُ الماءُ تارةً فيبدُو وأحياناً يَجُمُّ فيغرَقُ

[معنى «كادت دمنة الدار تنطق»]

ونظر البحتريّ إلى بيت ذي الرّمّة الأوّل فقال :

جئنا نُحَيِّيْ من أثيلة منزلاً جُدُدُا معالمُه بذي الأنصاب
أدَّى إليّ العهدَ من عرفانه حتَّى لكادَ يَرُدُّ رجعَ جَوابِي

[معنى حسر الدموع وإجمامها]

أخذه جِران العَوْد فقال :

نظرتُ كأنّي من وراء زجاجة إلى الدّار من فرط الصبابة أنظرُ
فعَيناي طوراً تغرقان من البكا فأعشَى وطوراً تحسُران فأبصِرُ

فروى النّاس هذين البيتَين وأغفَلا بيتَي ذي الرّمّة وهما الأصل، ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول الآخر:

غلبتْ عيني الدّموعُ فإنّني نحي كليلٌ يبدُو مِراراً، ويخفى
فكأنّي أراك من خلف ستـ ـرٍ هزّتِ الرّيحُ مُتنَهُ فتكفّى

وقد زعم قوم من العلماء أنّ الشّعر الّذي كتبنا للشّنفرى [هو] لخلَف الأحمر، وهذا غلط، ونحن نذكر الخبر في ذلك: أخبرنا الصّوليّ عن أبي العيناء قال: حضرتُ مجلس العُتبيّ ورجلٌ يقرأ عليه الشعر للشّنفرى حتّى أتى على القصيدة الّتي أوّلُها:

إنّ بالشّعب الّذي دون سَلْع لَقتيلاً دَمُهُ ما يُطَلُّ

فقال بعضُ مَن كان في المجلس: هذه القصيدة لخلف الأحمر، فضحك العتبيّ من قوله، فسألناه عن سبب ضحكه، فقال: والله ما قال أبو محرز خلَف من هذه القصيدة بيتاً واحداً، وما هي إلاّ للشّنفرى، وكان لها خبرٌ طريفٌ لم يبقَ مَن يعرفه غيري، قلنا: وما خبرُها؟ قال: جلسنا يوماً بالمِربَد ونحن جماعة من أهل الأدب ومَعنا خلف الأحمر، فتذاكرنا أشعارَ العرب، وكان خلف الأحمر أرْوانا لها وأبْصرنا بها، فتذاكرْنا منها صدْراً، ثمّ أفضَينا إلى أشعارنا فخُضْنا فيها ساعةً، فبَيْنا خلفٌ يُنشدنا قصيدةً له في رويّ قصيدة الشّنفرى هذه وقافيتها يذكرُ فيها ولد أمير المؤمنين [عليه السّلام] وما نالَهم وجرَى عليهم من الظّلم إذْ هجم علينا الأصمعيّ، وكان منحرفاً عن أهل البيت [عليهم السّلام] وقد أنشد خلف بعض الشّعر فلمّا نظر الأصمعيّ قطع ما كان ينشد من شعره ودخل في غيره إلاّ أنّه على الوزن والقافية ولم يكن فينا أحد عرف هذا الشّعر ولا رواه للشّنفرى، فتحيّرنا

لذلك وظنناه شيئاً عمله على البديهة، فلمّا انصرف الأصمعيّ قلنا له: قد عرفنا غرضك فيما فعلتَ وأقبلنا نُطريه ونقرّظه فقال: إنْ كان تقريظكم لي لأنّي عملتُ الشّعر فما عملتُه والله ولكنّه للشّنفرى يرثي تأبّط شراً، ووالله لو سمع الأصمعيّ بيتاً من الشّعر الّذي كنت أُنشدكموه ما أمسَى أو يقوم به خطيباً على منبر البصرة فيتْلف نفسي، فادّعاءُ شعرٍ لو أردتُ قولَ مثله ما تعذَّر عليَّ أهونُ عندي من أن يتّصل بالسلطان فألحقَ باللّطيف الخبير. قال أبو العيناء: فسألنا العتبيّ شعرَ خلَف الّذي ذكر فيه أهل البيت عليهم السلام فدافعَنا مدَّة ثمَّ أنشدنا:

قَدَكُ منّي صارمٌ ما يُفَلُّ ... وابنُ حَزمٍ عَقدُهُ لا يُحَلُّ

يَنثَني باللّوم من عاذليه ... ما يُبالي أكثَروا أم أقَلُّوا

لِرسول الله في أقربيه ... وبَنيه حيثُ ساروا وحَلُّوا

عنده مكنون نُصحٍ ووُدٍّ ... خالصٍ لم يقتدحْ فيه غلُّ

أهل بيت ما علَى جاحِديهِم ... حقّهم في الزُّبر ألاَّ يضلُّوا

صفوة الله الأُلَى من لَدُنْهُ ... لهم القدرُ الأعزُّ الأجلُّ

ما أطاع الله قومٌ تولَّوا ... من سِواهُم بل عصَوهُ وضلُّوا

وبهم شُقَّ دُجَى الغيِّ عنهم ... وعلى الإيمان والدِّين دُلُّوا

وبهم صُبَّت علَى كلِّ باغٍ ... باذخِ العزِّ صَغارٌ وذُلُّ

غَصَبوهم حقَّهم واستحلّوا ... ظالِموهُم منه ما لا يَحِلُّ

واقتدَوا فيهم بما سَنَّ رِجسٌ ... بارزَ الله زنيمٌ عُتُلُّ

لم يُراقبْ خشيةَ الله فيهم ... آصِرٌ منه ولم يُرعَ إلُّ

فهُمُ شتَّى قتيلٍ صريعٍ ... دمُهُ فيهم حذاراً يطَلُّ

وأسيرٍ في طمارٍ عليه ... من حديد القَين كبلٌ وغُلُّ

ومُقيمٌ خاشعٌ في عدوٍّ ... مُستضامٌ بينهم مُستذلُّ

لا علَى جرمٍ ولا عن شقاقٍ ... ركبوا الدّحضَ إليهم فزلُّوا

غيرَ أنْ فاءَ علَى ظالميهم ... بهم للملك فيءٌ وظلُّ

وأنْ اوْفَوا بالنَّبيِّ المصفَّى ... جدُّهم مأثرةً لا تقلُّ

وبنَى الله لهم بيتَ مجدٍ ... فطرةُ الدِّين به تستظلُّ

في جَميلٍ بارك الله فيه ... لم ينلْ ما خوَّلُوه جبلُّ

وارثُو مخزونِ علمٍ عليه ... كلُّ ذي علمٍ عيالٌ وكلُّ

وعلِيٌّ ذو المعالي أبوهم ... كرمُ السّامي به والمُدلُّ

علَّمَ الدّينَ الّذي مَن تلاهُ ... سالكُ سُبْلَ الهدَى لا يضلُّ

وأميرُ المؤمنين المرجِّي ... فضلَه مُثْرِيهمُ والمُقِلُّ

باسط كفَّيه فيهم بعدلٍ ... وصَبيرٍ صوبُهُ مستهلُّ

عن سماءٍ لهم كلَّ يومٍ ... ديمةٌ منه ووَبْلٌ وطَلُّ

وشهابُ الله في كلِّ خَطْبٍ ... وحُسامُ الله والنَّقْعُ يعلُو

حيث يَلقَى في ظِلال المنايا ... كلَّ ليثٍ باسلٍ وهْوَ فَلُّ

جسدٌ يعفوه طيرٌ عكُوفٌ ... وضَوارٍ شُرَّعٌ فيه زُلُّ

مَكنزٌ فيه من بعد حَول ... للضّباع العُرْج لحمٌ مُصِلُّ

بطلٌ أغلبُ في راحتيه ... للقنا والبِيض نهلٌ وعَلُّ

يكره الأبطال منه ابْنَ موتٍ ... لا يملُّ الحربَ حتَّى يَملُّوا

يحمد العضْبُ اليماني شظَاه ... في الوغا والسمهريّ المتلُّ

فكأنَّ النَّقعَ ينشام عنه ... ضيغم جهم المُحيّا رِفَلُّ

قد غدا يُضمر بغضاً ويُبدي ... بِغضة أضغانُها لا تُسَلُّ

شـــــاور النكراء في الله منه ... شـــائك الأنيـــاب يقظان صِلُّ
لا الـرُّقَى تـردَع مـنـــه ولا مَن ... مَسَّ حـــــــدَّ النّاب منه يُبِلُّ
مـوطن من عـهـد لقـمـان عـادٍ ... دونـــه مـــن قُلَل الحَزن تـــلُّ
مـــتـــحـــامٍ لا يؤدّي إليـــه ... نُبُسَ الإنـــس ولا الجـــنّ حـــلُّ
كـيَبيس الجَزْل إلاّ فَحـيـحـاً ... يصـــــهـــــر المرءُ به أو يمـلُّ
لو مـضَتْ عـاليـةُ الرُّمح فـيـه ... مـــا تغـشَّى اللَّيطَ منه مـبلُّ
أو نمتْ أذرُعُ ألـف إليـــــــه ... رجـــعتْ عن نفثـــه وهي شُلُّ
كلّمـــــا مـــــدّ المطا وتمطّى ... فـــحـــصَى المعـــزاء منه يُصِلُّ
عُدْ إلى مـــدح الّذين عليـــهم ... مـــن يمـــين الله ظِلٌّ فـــظـــلُّ
خـيـــر مَن خبَّتْ بهم ذاتُ لَوثٍ ... دامـيـاً للجـهـد منهـا الأظَلُّ
في مـهـارى ذُبَّل كـالسّعـالي ... تحت شُعثٍ قـــــد أكلُّوا وكلَّوا
عـامـدي الكعـبـة من كلّ فجٍّ ... كلّمـا أعـرض شـخصٌ أهلوا

كتبنا هذه القصيدة بأسرها لأنّها في سادتنا [عليهم السّلام] ولأنّها أيضاً غريبة لا يكاد أكثر النّاس يعرفونها.

[معنى لا إصلاح بعد الأربعين]

الأعور العبدي[1]:

إذا [مـا] المرءُ قـصّر -ثمّ مـرَّتْ ... عليـه الأربعـونَ- عن المعـالي
ولم يلحقْ بصـالحـةٍ فـدَعْهُ ... فليس بلاحقٍ أُخـرى اللّيـالي

(١) هو الأعور الشني العبدي؛ بشر بن منقذ بن عبد القيس.

أخذ هذا المعنى الخريميّ فقال[1]:

إذا المرءُ وفَّى الأربعين ولم يكُنْ ... له دون ما يهوَى حياءٌ ولا سِتْرُ
فدعْهُ ولا تَنفِسْ عليه الّذي أتَى ... وإنْ جرَّ أذيالَ الحياةِ له الدَّهْرُ

[معنى هجاء الضيوف]

حُميد الأرقط وكان هجّاءً للضيوف:

أواثبُ ضَيفي حين يُقبِلُ طارقا ... بسَيفي ولا أرْضَى بما صنَعَ الكلْبُ
وأضْرِبُهُ حتَّى يقولَ: قتلْتَني ... على غير جُرمٍ، قلتُ قلَّ لك الضَّرْبُ

وله أيضاً:

إذا ضافَني ضَيفٌ سلَبْتُ ثيابَهُ ... وإنْ كان ذا طِرْفٍ أقام على الخَسَفِ
أحذّرُهُ أنْ لا يعودَ لمثلِها ... فإنْ عادَ عُدْنا في الجهالة والعُنْفِ

مثله لغيره:

وإنّا لنجفُو الضَّيف من غير عُسرةٍ ... مخافة أنْ يَضْرَى بنا فيعودُ

حدَّثَنا أبو بكر أحمد بن منصور المعروف بابن الخيّاط النحويّ [رحمه الله] قال: أخبرني صَعُودا قال: كنّا في مجلس أبي عِكْرِمة الضبّيّ، وكان أعلَم النّاسِ بأشعار العرب وأرواهم لها على شراسة كانَت في خُلُقه، فرأيناه نشيطاً.

[أطبع قصيدة للعرب]

قال صعودا: فلمّا رأينا نشاطه سألناه عن أطبع قصيدة للعرب وأحسنها رونقاً وأكثرها ماءً، فقال لنا: قد أكثرتم وأطلتم وسأنشدكم قصيدة

(١) البيتان لأيمن بن خريم الأسدي.

كما قلتم وأنا أُعْطِي الله عهداً أن عرَّفتكم من قالها، قالوا: نرضَى بذلك، فأنشدنا:

ألاَ مـــا لعَينك مطروفـــةً ... بذكـــر الخـــيـــال الّذي زارَها
لذكْرِ خـــيـــال ســـرَى مَوهناً ... فـــهـــاج علَى العَين عُوّارَها
تجـــاوزَ نَحـــويَ هَولَ النُّجـــودِ ... وسَهلَ البـــلاد وأوعـــارَها
فـــبِتُّ بـــه جَذلاً لـيـلَتـي ... إلى أن تبـــيَّنْتُ أسْحـــارَها
فلمّا انْتـبَهْتُ وجـدتُ الخـيـالَ ... أمـــانيَّ نفسٍ وتذكـــارَها
وفـــاض من العَين مُغـــرَورِقٌ ... من الدَّمْعِ ألْثَقَ أشـــفـــارَها
لِذكْرِ التي دون أبْيـــاتـهـــا ... تَنـائـف تُـقـطـع مُزدارَهـا
وســـاجٍ من البـحـر مُغْرَورِقٌ ... يُنَهْنِهُ دوني أخـــبـــارها
نَزورُ الكلام قطيعُ القـيـــا ... مِ لم يُظلِمِ الهمُّ أسْهـــارَها
ولم تَسْتُ في صَرْمـةٍ بالغَضـا ... ولا الحَزْنِ تَنـــظُرُ مِيَّارَهـــا
كـــأنَّ سُخـــامِيَّةً عُتِّقَتْ ... ثلاثينَ حَولاً وأعـــصـــارَها
لقـيـــصَرَ لم يُغْلِهـــا طابِخٌ ... ولـم يُتْعِبِ الـوَطْءُ عَصّارَهـا
فـأصْفَى بعـقـوته نفسَهُ ... ولـم يَدْعُ لـلـبَيـع تجّارَهـا
يُعَلُّ بِهـا بَرْدُ أنيـابِهـا ... إذا انْتـابَتِ الطَّيـرُ أوكـارَها
فـيـالَيـتَهـا ساعـفتْ بالوصـو ... ل وقـتـاً وحُمِّلْتُ أوزارَها
وكـفّي لهـا الرّهْنُ أنْ لا أخُونَ ... وأنْ لا أُضيِّعَ أسْرارَهـا
مـتَى مـا أنَلْ وُدَّها صـافـيـا ... فـقـد قـضَّتِ النَّفْسُ أوطارَها
وكنّا ونحنُ لهـا جيـرةٌ ... يـطـول تجـنُّبُنـا دارَهـا
حـيـاءً علَى أنَّني استَجَنَّ ... عليـهـا وأغـبط زُوَّارَها

إذا أنا أبْتَثُّهـــا حـــاجـــةً ... أطـال فـــؤادِيَ إضْمـــارَهـا

أرَتْني مَخـــايِلَ يُعـــجِبـنَني ... لـغـــيـــريَ تُنزِلُ أمطارَهـا

فـيـاليتَ شـعـريَ هل أبْصِرَنَّ ... بوادي العـقـيـقين حُضَّارَهـا

وهل أشْهـدنَّ بتلك الهضـا ... بِ سَحْبَ الذُّيول وتجـرارَهـا

وعـــاذلة باكـــرَتْني تَلـومُ ... وتَفْرِي من الغَيظ أطمـــارَهـا

تَخـافُ عليَّ اجْتِـيـابي البـلادَ ... ورَمْيي بنـفـــسِيَ أقـطارَهـا

فـــقـلتُ لتَعلَمَ مـــا نيَّتي ... وأنْ لستُ أحفِلُ إكْثـــارَهـا :

أعـاذلَ مَهـلاً فـقدْمـا عـصَيْتُ ... مـقـــالَ النِّســاء وتأمـــارَهـا

دعـيني فـلا أنا أرْجـو الخُلودَ ... ولا النَّفْسُ تَسـبِقُ مـقـدارَهـا

وليس القُعـودُ بمنجي النفُوسِ ... بلِ اللهُ يكتب إنشـــارَهـا

وأرضٍ قطعتُ بلا صـاحبٍ ... إذا الآلُ ألْبَسَ أطـــرارَهـــا

لَهَوتُ ببيضٍ حِسـان الوُجـو ... هِ لم يَلِجِ الضِّحُّ أبشـــارَهـا

كـمـثل الجـآذر يُلْهِينَني ... وأدْعـــو إلى اللَّهْوِ أبكارَهـا

وخَيلٍ هدَيتُ وخيلٍ حَمَيْتُ ... وما إذا هـيَ لـم تَحْمِ أدْبـارَهـا

ومـا زلتُ منذُ فـهِمتُ الشُّؤون ... ونـقـضَ الأمـــور وإمْرارَهـا

لزازَ خُصـــومٍ إذا أجْلَبـــوا ... أكـفكِفُ بالصَّمْت مهـذارَهـا

وكـــشَّافَ هَوْلٍ وركَّابَهُ ... وحلاَّلَ بِيـــدٍ وسيَّارَهـا

عـقَرتُ لهم عند إرْمـالهم ... قـلوصي ولـم أدْعُ أيْسـارَهـا

ولـم أكُ إذْ خِفتُ إرمـــالَهم ... كـمن يَكْسَعُ الشَّوْلَ أغـبـارَهـا

فـهـذا بلائي وإني امْرُؤٌ ... حلَبْتُ المعيـشـةَ أشطارَهـا

وكنتُ إذا مـا أردتُ القَريضَ ... تُخـبِّرُني الجِنُّ أشـعـارَهـ

أروضُ صعابَ قوافي القريضِ حتّى تذلَّ فأختارَها
قوافٍ يوردُها صاحبي إليَّ وأكفيهِ إصدارَها

قال صعوداً: فوالله لقد جهدنا به كلّ الجهد أنْ يعرّفَنا مَن قائلُ هذا الشّعر فلم يفعل، فلمّا حضرته الوفاة كتب وصيّتَهُ. فقلتُ له: ما لتلك القصيدة في قلبي حَلاوة حتّى أعرف قائلَها، فإنْ رأيتَ أن تعرّفَني من قالها. فضحك لي وقال: قد كنتُ أتوهّمك مَوضعاً للوصيّة، وأمّا الآن فما أرى لك عقلاً، انبذْ إليّ كتابَ الوصيّة. أتراني كنتُ في حالٍ من الأحوال أسوأ أخلاقاً منّي وأنا أستبينُ الموتَ في حركاتي، والله لا عرفتَ قائلَها منّي أبداً. هاتِ الوصيّة وقُمْ، فأخذها منّي وانصرفتُ ومات في آخر يومه.

حدّثَنا الصّوليّ عن أبي العيناء قال: حدّثنا الزّبير بن بكّار قال: حدّثني محمّد بن إبراهيم اللّيثيّ قال: حدّثنا محمّد بن مَعْن الغفاريّ قال: أقْحمت السَّنَةُ ناساً من الأعراب فحلُّوا المذار فأبرقوا[1] فإذا غلامٌ منهم قد عاد جلداً وعَظْماً وهو رافع عَقيرتَهُ يتغنّى بأبيات قالها عند نظره إلى البرق وهي:

ألا يا سَنا برقٍ على قُلَلِ الحِمَى لِيَهْنكَ من برقٍ عليَّ كريمُ
لمعْتُ اقْتذاءَ الطَّير والقومُ هُجَّعٌ فهيَّجْتَ أحزاناً وأنت سَليمُ
فبِتُّ بحدّ المرفقين أشيمُهُ كأنّي لبرقٍ بالسّتارِ حَميمُ
فهلْ من مُعيرٍ طَرْفَ عَينٍ خليَّةٍ فإنسانُ عَين العامريّ كليمُ
رمَى قلبَهُ البرقُ اليمانيُّ رَمْيَةً بذكرِ الحِمَى وَهْناً فكاد يهيمُ

فقلتُ: ياغلام! في دون ما بك ما يُفْحِم عن الشّعر، فقال: أجل ولكنّ البرق أنْطَقَني، قال: فما مكث يومه ذلك حتّى مات.

(١) أبرقوا، أي: جاءهم البَرْق.

[معنى الاستعانة في البكاء بالغير]

أمّا قوله «فهل مع معير» البيت فهو مثل قول العبّاس:

نزح البكاءُ دموعَ عينك فاستَعِرْ ... عيناً لغيرك دمعُها مدرارُ

مَن ذا يُعيرك عينَه تبكي بها ... أرأيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

وقريب منه قول الآخر:

ولي كبدٌ مقروحةٌ مَن يبيعني ... بها كبداً ليست بذاتِ قُروح

أبَى النّاسُ -ويَبَ النّاسِ- لا يَشترونَها ... ومَن يشترِي ذا عُرّةٍ بصحيح

[نوع خاص من الهجاء]

لآخر يهجو:

لو كنتَ ريحاً كانت الدَّأبورا ... أو كنتَ غيماً لم يكن مَطِيرا

أو كنتَ ماءً لم يكن طَهوراً ... أو كنتَ مُخّاً كنتَ مُخّاً رِيرا

مثله لآخر:

لو كنت ماءً لم تكن بعذبِ ... أو كنتَ سيفاً لم تكنْ بعضْبِ

أو كنت لحماً كنت لحمَ كلْبِ ... أو كنتَ عَيْراً لم تكنْ بنَدْبِ

مثله لآخر:

لو كنتمُ شاءً لكنتم نَقَدَا ... أو كنتم ماءً لكنتم زَبَدَا

أو كنتمُ طَيراً لكنتمْ صُرَدَا ... أو كنتم عِداً لكنتم ثَمَدَا

أو كنتمُ صُوفاً لكنتمْ قَرَدَا ... أو كنتم لحماً لكنتم غُدَدَا

أعرابيّ من بني أسد قصَّر به ماله عن التزوج فقال:

زعم الكواسدُ أنّني متزوّجٌ ... منهنّ أو متعزّبٌ فمُطيلُ
يا ربّ إنّ تعزُّباً أختارُهُ ... إنْ كان ليس إلى الملاح سبيلُ

وغالى أعرابيّ في امرأة فلامَه قومُه وعنّفوه فقال :

يقولون قد أغليتَها قلتُ إنّما ... يُسامي غَلاءَ المَهْرِ من كان غاليا
لعَمري لقد أغليتُها وهْيَ أهلهُ ... علَى حين راعَ الشَّيبُ منّي الغوانيا

مثله لآخر :

ابتعتُ ظَبْيَةَ بالغَلاء وإنّما ... يُعطِي الغلاءَ بمثلها أمثالي
وتركتُ أسْواءَ القِباحَ وإنْ رَخُصْنَ غوالي ... إنّ القِباحَ

أبو الجوين العبسيّ :

إنّي امرُؤٌ ما تستقرّ دراهمي ... على الكفّ إلاّ عابراتِ سبيلِ
أحكِّمُ فيها الحقَّ حتّى أذلّها ... إذا ذاد عنها الحقَّ كلُّ بخيلِ

مثله للغطمّش الضبّيّ :

ومَن يكُ كفُّه لمالٍ سجنا ... فكفّي للدراهمِ كالسّبيلِ
يمرُّ الدرهمُ الصيّاحُ فيها ... جواداً ما يُعرِّج للمقيلِ

ذو الرُّمّة :

وأشعثَ مثلِ السّيف قد لاحَ جسمَهُ ... وَجيفُ الهَارَى والهمومُ الأباعدُ
سقَاهُ الكرَى كأسَ النُّعاسِ فرأسُهُ ... لدِين الكرَى من آخرِ اللّيل ساجدُ

مروان بن مالك الحنفيّ :

دلفْنا إليهم والسّيوفُ عصيُّنا ... وكلٌّ لكلٍّ يومَ ذلك واكرُ
بجَمْعٍ تظلُّ الأكْمُ ساجدةً له ... إذا هَزْهَزَتْها في المَسير الحوافرُ

كـــلا ثقَلَيْنا طامعٌ في غنيـــمـــةٍ وقـد قـدّر الرحـمنُ مـا هُوَ قـادرُ
فلم أرَ يومـاً كـان أكـثـرَ سـالبـاً ومُسـتلَبـاً والنَّقعُ في الجـوّ ثائرُ
وأكـثـرَ منّا ناشـئـاً يبـتـغي العلَى يُضـاربُ قِرناً دارِعـا وهْوَ حـاسِرُ

إلى البيت الأخير نظر البحتريّ بقوله :

قطع القـــرائنَ واللّواءَ لغـيـــره بالمَشـــرفـــيّة حُسَّراً في الدُّرَّعِ

حَرْمَلَةُ بنُ مُقاتِل :

ألاَ طرقـــتْنا أمُّ سلْمٍ فـــأرَّقَتْ فـيـا حـبّذا إلمامُهـا وطروقُهـا
وليلٍ بَهـيمٍ قـد تجـشَّمْتُ نحـوَها وهاجِرةٍ شَهـبـاءَ حـامٍ وَدِيقُهـا
فَمَنْ بائعي عَيناً بعَينٍ مـريضـةٍ ونَفْسـاً بنفسٍ في وَثاقٍ طليـقُهـا
وما ضَرَبٌ في رأسِ صَعبٍ مُمرَّدٍ بتَنْهـاتِه يَسـتَنْزِلُ العُقْرَ نِيـقُهـا
بأطيبَ من فِيهـا لمنْ ذاق طعـمَهُ وقـد جفَّ بعـد النَّوم للنَّوم ريقُهـا
إذا اعتلَّت الأفواهُ واستمكنَ الكَرَى وقـد حـان من نجمِ الثُّريّا خفُـوقُهـا
وما ذُقتُ فاها غيـرَ حالٍ رجَوتُهُ ألا ربَّ راجٍ شَربةٍ لا يذوقُهـــا

[معنى الاستعانة في البكاء بالغير]

أمّا قوله «فمن بائعي» البيت، فبيتٌ جيّدٌ مُتساوي القسمَين صحيح الصّدر والعَجز. شبيه به وإنْ كان دونَه قول العامري:

فـــهلْ مِن مُعِيـــر جفْنَ عَينٍ خَلِيَّةٍ فـــإنسـانُ عين العـــامريّ كليمُ

وأخذه ابن الأحنف فقال «نزف البكاءُ دموع عينك» البيتَين، ومثله لآخر:

ولي كبدٌ مقروحةٌ مَن يَبيعُني ... بها كبداً ليستْ بذاتِ قُرُوحِ
أباها عليَّ النّاسُ لا يَشترُونَها ... ومن يَشتري ذا علّةٍ بصحيح

[معنى صفة الفم]

وأمّا قوله في صفة الفم «إذا اعتلَّت الأفواهُ» البيت فما نَعلَمُ أنّ أحداً من المتقدّمين ولا المحدثين جوّد في هذا المعنى وأبدع وأتى بما لم يأتِ به غيره ولا يقدر عليه سواهُ غير ابن الرّوميّ فإنّه أبْدعَ وطرَّف وملّح بقوله :

تُعنّتُ بالمسواك أبيضَ صافياً ... تكادُ عَذارَى الدُّرّ منه تحدَّرُ
وما سرَّ عِيدانَ الأراك بريقها ... تناوُحُها في أيكها تتهصَّرُ
لئن عدمتْ سُقيا الثَّرى إنّ ريقها ... لأعذَبُ من هاتيك سُقيا وأخضَرُ
وما ذُقتُهُ إلاّ بشَيم ابتسامها ... وكم مَخبَرٍ يُبديه للعَين مَنظَرُ
بدا لي وَميضٌ شاهدٌ أنّ صَوبَهُ ... غَريضٌ وما عندي سوى ذاك مَخبَرُ
ولا عَيبَ فيها غير أنّ ضجيعَها ... وإنْ لم تُصبْهُ الساهريّةُ يَسْهَرُ
تذود الكرَى عنه بنَشرٍ كأنّما ... تَضوّعُهُ مِسكٌ ذكيٌّ وعنبَرُ
وما تَعتريها آفةٌ بَشَريَّةٌ ... من النَّومِ إلاّ أنّها تتَجبَّرُ
وغيرُ عجيبٍ طِيبُ أنفاسِ رَوضةٍ ... مُنوّرةٍ باتَتْ تُراحُ وتُمْطَرُ
كذلك أنفاس الرِّياحِ بسُحرةٍ ... تَطيبُ وأنفاسُ الأنام تَغيَّرُ

هذه الأبيات النهاية في هذا المعنى .

[في صفة الخباء]

وأنشدنا ابن دُريد وذكر أنّه أحسن ما وُصف به خباءٌ ولقد صدق في ذلك، والشّعر لطُفَيْلِ بنِ عَوفٍ الغَنَويّ وهو الّذي يقال له طُفَيْلُ الخَيل :

وبَيتٍ تَهُبُّ الريحُ في حَجَراتِهِ ... بأرضِ فَضاءٍ بابُهُ لم يُحَجَّبِ

سَماوَتُهُ أسمالُ بُردٍ مُفَوَّفٍ ... وصَهْوَتُهُ مِن أنْحَمِيٍّ مُعَقَّبِ

وأطنابُهُ أشطانُ جُرْدٍ كأنَّها ... صُدورُ القنا مِن بادِئٍ ومُعَصَّبِ

يُكَفُّ عَلَى قومٍ تُدِرُّ رِماحُهُم ... عُروقَ الأعادي من غَرِيرٍ وأشْيَبِ

وفينا تَرَى الطُّوَلَى وكلَّ سَمَيْدَعٍ ... مُدَرَّبِ حربٍ وابنِ كلِّ مُدَرَّبِ

طويلِ نِجادِ السَّيفِ لم يَرْضَ خُطَّةً ... مِن الخَسْفِ خَوّاضٍ إلى الحربِ مِحْرَبِ

وفينا رِباطُ الخيلِ كلُّ مُطَهَّمٍ ... رَجِيٍّ كسِرْحانِ الفضا المتأوِّبِ

وكُمتاً مُدَمَّاةً كأنَّ مُتُونَها ... جَرَى فوقَها واستَشْعَرَتْ لَونَ مُذْهَبِ

وهَصْنَ الحَصَى حتّى كأنَّ قُضاضَهُ ... ذُرَى بَرَدٍ من وابِلٍ مُتَحَلِّبِ

يُبادِرْنَ بالفُرسانِ كلَّ ثَنِيَّةٍ ... جُنُوحاً كفُرّاطِ القَطا المتَشَرِّبِ

إذا انقَلَبَتْ أدَّتْ وجوهاً كريمةً ... مُحَبَّبَةً أدَّيْنَ كلَّ مُحَبَّبِ

خَدَتْ جولَ أطنابِ البُيوتِ وسوَّفَتْ ... مَراداً وإنْ تُفْرَعْ عِصا الحربِ تُرْكَبِ

وللخيلِ أيّامٌ فمن يَصْطَبِرْ لها ... ويَعرِفْ لها أيّامَها الخَيرَ يُعْقِبِ

هذا البيت مأخوذ من قول امرئ القيس:

والخيرُ ما طلعتْ شمسٌ وما غَرَبَتْ ... مُعلَّقٌ بنواصي الخَيلِ معصوبُ

وقول النّبيّ ﷺ أصحّ الأقاويل يُشبه هذه الأبيات وهو «الخيرُ ما طلعت الشمسُ وما غربتْ معلّق بنواصي الخيل».

وللشعراء في ذكر القلاع وصفاتها أشعار تكثر وتتسع. ونحن نذكر منها ههنا شيئاً ممّا نختاره، فمن جيِّد ذلك قولُ كعب الأشقريّ أو غيره من شعراء خراسان في أيّام الفتوح، يقول في قلعة افتتحَها المسلمون:

مُحلِّقةٌ دون السَّماءِ كأنَّها ... غَمامةُ صَيفٍ زالَ عنها سَحابُها

فما يَلحق الأرْوَى شَماريخَها الدُّنَى ولا الطَّيرُ إلاّ نَسْرُها وعُقابُها
وما رُوِّعَتْ بالذِّئب وِلدانُ أهلِها ولا نَبَحتْ إلاّ النُّجومَ كِلابُها

ولَنا في صفة القلعة أيضاً قصيدة أنفذْناها إلى الأمير سَيف الدَّولة، رضي الله عنه، إلى الشام:

وخَرْقاءَ قد تاهَتْ على من يَرُومُها بمَرْقَبِها العالي وجانِبِها الصَّعْبِ
يَزُرُّ عليها الجَوُّ جَيبَ غمامِه ويُلْبِسُها عقداً بأنجُمِه الشُّهْبِ
إذا ما سَرَى بَرقٌ بدَتْ من خلالِه كما لاحتِ العَذراءُ من خلَلِ الحُجْبِ
فكم ذي جُنودٍ قد أماتَتْ بغُصَّةٍ وذي سطَواتٍ قد أباتَتْ على عَتَبِ
سَمَوتُ لها بالرأي يُشرقُ في الدُّجَى ويَقْطَعُ في الجُلَّى ويَقْدَعُ في الهَضْبِ
فأبْرَرتَها مَهتوكةَ الجَيبِ بالقَنا وغادَرْتَها ملْصوقةَ الخدِّ بالتُّرْبِ

ولنا إليه رحمه الله قصيدة أخرى في هذا المعنَى أنفذناها إليه إلى الشام:

وقَلْعةٍ عانَقَ العَيُّوقَ سافلُها وجازَ منطقةَ الجَوزاءِ عالِيها
لا تَعرِفُ القَطْرَ إذ كان الغَمامُ لَها أرْضاً لوَطْأةِ قُطْرَيْهِ مَواشِيها
إذا الغمامةُ راحتْ خاضَ ساكِبُها حِياضَها قبلَ أنْ تَهْمِي عزَالِيها
يُعِدُّ من أنجمِ الأفلاكِ مَرقَبُها لَو أنَّه كانَ يَجْري في مَجاريها
على ذُرًا شامخٍ وَعْرٍ قد امتَلأتْ كِبْراً به وهْوَ مَملُوءٌ بها تيها
له عِقابُ عُقابِ الجوِّ حائمةٌ من دونِها فَهْيَ تَخشَى في خَوافيها
ردَّتْ مكايدَ أملاكٍ مكايدُها وقَصَّرتْ بدَواهيهم دواهيها
أوطأتَ همَّتَك العَلْياءَ هامَتَها لمّا جعلتَ العوالي من مَراقيها
ولم تَقِسْ بك خَلْقاً في البريَّة إذْ رأتْ قِسيَّ الرَّدَى في كفِّ بارِيها

قدمَ رجلان من بني زُبيد لدمٍ أصابا في قومهما إلى سنجار فأقاما بها مدةً ثمّ شربا بها يوماً ومعهما رجل من النّمر بن قاسطٍ فلما سكِرا اشتاقا بلَدَهما وحنّا لذلك فقال أحدهما:

أيا جبَلَيْ سنجارَ ما كنتما لَنا ... مَقيظاً ولا مَشتىً ولا مترَبَّعا
ويا جبلَيْ سنجار هلاّ بكَيتُمَا ... لداعِي الهوَى منّا شَنِينَينِ أدمُعا
ولو جبَلا عُوج شكونا إليهما ... جرتْ عَبَراتٌ منهما وتصدَّعا
بكَى يومَ تَلّ المحلبيَّة صاحِبي ... ويوماً على الثَرثار حَنَّ ورجَّعا

فأجابه النّمريّ:

أيا جبَلَي سِنجارَ هلاّ دقَقْتُما ... برُكنَيكما أنْفَ الزُّبيدي أجمعا
لعمرك ما جاءتْ زُبيدٌ لهجرةٍ ... ولكنها جاءتْ من الرَّمْل جُوَّعا

خاصَمتْ بعض نساء العرب زوجَها وقالتْ له: ما رأيتُ معك خيراً قطّ، فقال:

ألَمْ أبْغِكِ المالَ قد تعلَمينَ ... وجُبتُ العراقَ وجُبتُ الشّاما
وجُبتُ الشُّريف بأكنافه ... وجُبْتُ اليمامةَ غِراً غُلاما
فأنتِ الطّلاقُ وأنتِ الطلا ... قُ وأنتِ الطّلاق تماماً تماما

كان عند مرقال بن بَحْوَنَة الأسديّ ابنةُ عمٍّ له ورَهْاءُ فدخل منزله يوماً وهي مُغضَبَةٌ فقال: ما شأنك؟ قالت: لأنكَ ما تشبِّبُ بي كما يشبِّبُ الرّجال بالنّساء، فقال: فإنّي أفعل، قالت: فهات، فأنشدَها وكان اسمها عُبَيدة:

تمَّت عُبيدةُ إلاّ في مَلاحتها ... فالحُسنُ منها بحيث الشّمسُ والقمَرُ
ما خالفَ الظّبْيَ منها حين تُبصره ... إلاّ سوالفُه والجِيدُ والنَّظرُ
قُل للّذي عابَها من حاسدٍ حَنِقٍ ... أقصِرْ فرأسُ الّذي قد عِبْتَ والحَجَرُ

[معنى الحنين إلى البدر

رامة بنت الحصين بن منقذ بن الطمّاح، وكانت وردت الحضر فلم تستطبْه فحنَّت إلى البَدو وقالت:

أقـام مـعي من لا أُحِبُّ جـوارَه ... وجـاراي جـارا الصِّدق مُرتَحِلانِ

ألا ليت شـعـري هل أبيـتَنَّ ليلةً ... وبيني وبين البـصـرة النَّهـرَانِ

فإنْ يُنجِني منها الّذي ساقَني لها ... فـلابـدَّ من غِمْرٍ ومن شَنَآنِ

وقالت أيضاً:

ياليَت شعري وليَتٌ أصبحَتْ غَصَصاً ... هل أهبِطَنْ قـريةً ليـست بهـا دُورُ

ألاَ سـبـيـلَ إلى نَجـدٍ وسـاكنه ... أولا فنَجْدٌ حبيبُ الأهل مهـجـورُ

لقـد تبـدّلتُ من نجـدٍ وسـاكنه ... أرْضـاً بهـا الدِّيكُ يَزقُو والسَّنانيـرُ

سُوَيد بن سواد الجُلْهُمِي وكان له فرسٌ يسمَّى ناصحاً فأراد السِّباقَ به فقال يخاطبه:

أناصحُ بَرِّزْ للسِّبـاق فـإنّهـا ... غـداةُ رِهـانٍ جَمَّعَتْهُ الحَلائبُ

فـإنّك مَجلوٌ عليك ضُحَى غـدٍ ... ومـا لَكَ إنْ لم يَجْلُبِ اللهُ جـالبُ

أتَذكرُ إلْبـاسِيك في كلّ شَتْوةٍ ... رِدائي وإطعـامِيك والبطنُ ساغِبُ

لك الله والإسـلامُ إنْ جئتَ سابقاً ... عليَّ؛ ونَذْرٌ لا أبـيـعُكَ واجِبُ

وأنْ لا أُرِيحَ الدَّهْرَ مـالاً مَلكتُهُ ... وأنتَ سوى أرضي من الأرض عازِبُ

أحِمُّ دَجـوجِيٌّ كـأنّ عِظامَه ... إذا مـا بدتْ للنّاظِرين المشـاجِبُ

أعرابي[1]:

فـإنْ أهلكْ فـقـد أبقَيتُ بعـدي ... قـوافي تُعـجِبِ المتـمـثِّلينا

---

(١) هو ابن ميادة.

لذيذاتِ المقاطع محكَمات ... لَوَانَّ الشّعرَ يُلبَسُ لارتُدِينا

حارثة بن بدر الغُداني:

هو الشَّمسُ إلاّ أنّ للشّمس غَيبةً ... وهذا الفتَى العَمْرِيُّ ليس يغيبُ

يروحُ ويغدُو ما يُفتِّر ساعةً ... وإنْ قيلَ ناءٍ منك فهْو قريبُ

[معنى «إن لم يغز ينتظر»]

هذا مثل قول أخت المتنشر ترثيه:

لا يأمَنُ النّاسُ مُمساهُ ومُصبَحَهُ ... من كلّ أوبٍ وإنْ لم يَغزُ يُنتَظَرُ

مثله قول عُروة بن الورد:

مُطلاً على أعدائه يزجرونَه ... بساحتهم زجرَ المَنيح المشهَّرِ

إذا بَعُدوا لا يأمَنونَ اقترابَهُ ... تشوُّفَ أهل الغائب المتنظَّرِ

[من غرائب الحمق مدح الكميت للنبي]

ما نعرف شيئاً من الشعر القديم ولا المحدَث يَلحقه من العيب على تقدُّم صاحبه وإجماع العلماء على تفضيله في الشّعر وحذقه به مثلَ هذه الأبيات وهي للكُميت بن زيد يمدح بها النبيَّ ﷺ، وهي:

فاعتَبَ الشَّوقُ من فؤادي والشعرُ إلى مَن إليه يُعْتَبُ

إلى السِّراج المُنيرِ أحمدَ لا ... تَعدِلُني رغبةٌ ولا رَهَبُ

عنهُ إلى غيرِه ولو رفَعَ النّاسُ إليَّ العيُونَ وارتقَبوا

وقيلَ: أفرطتَ، بل قَصَدتُ ولَو ... عنَّفَني القائلونَ أو ثلَبُوا

إليكَ يا خيرَ مَن تضمَّنتِ الأرضُ ولو عاب قولِيَ العيُبُ

لَجَّ بتفضيلك اللّسانُ ولَو ... أكثرَ فيه اللَّجاجُ والصَّخَبُ

هذا الشّعرُ من غرائب الحُمق، من رأى شاعراً مدحَ النّبيَّ ﷺ فاعترَضَ عليه أحدٌ من جميع أصناف المسلمين حتّى يزعم أنَّ ناساً يَعيبونَه ويثلِبونَه ويعنِّفونَه؟ وله شبيهٌ بهذا في مرثية رثى بها النبيَّ ﷺ يقول فيها:

وبُورِك قبرٌ أنتَ فيه وبورِكتْ ... به وله أهلٌ لِذلك يثـــــربُ

لقد غيَّبوا براً وحزماً ونائلاً ... عشيَّةَ واراك الصّفيحُ المنَصَّبُ

وهذا شعرٌ يصلُح أن يُرثى به عامةُ النّاس غير النبيّ:

جرير يهجو بني حنيفة:

أبناءُ نَخلٍ وحيطانٍ ومَزْرَعةٍ ... سيوفُهم خُشُبٌ فيها مَساحِيها

قطعُ الثِّمار وسَقيُ النَّخل عادتُهم ... قِدْماً وما جاوزتْ هذا مَساعِيها

لَو قيل: أين هَوادي الخَيْل ما عَلِموا ... قالوا لأعجازها هذي هواديها

أو قِيلَ إنّ حِمام الموت آخِذُكم ... أو تُلْجِموا فَرساً قامت بَواكيها

حاتم الطّائيّ:

أيا ابْنةَ عبد الله وابْنة مالكٍ ... ويا ابْنة ذي البُردَين والفرس الوَرْدِ

إذا ما صنَعت الزّادَ فالتمسي لهُ ... أكيلاً فإنّي لستُ آكلهُ وَحْدِي

كريماً فَصيّاً أو قريباً فإنّني ... أخافُ مَذمّات الأحاديث من بَعدي

وكيف يُسيغ المرءُ زاداً وجارُهُ ... خفيف المعَى بادي الخَصاصة والجَهْدِ

وللمَوتُ خيرٌ من زيارة باخلٍ ... يُلاحظ أطرافَ الأكيل علَى عَمْدِ

حَجْل بن نَضْلة:

فويلُ أمِّ لَذّات الشّباب مَعيشةً ... مع المال يُعطَاه الفتَى المُتلِفُ النَّدِي

وقد يَقصرُ القُلُّ الفتَى دونَ هَمِّه ... وقد كان لولا القُلُّ طَلاّعَ أنجُدِ

مثل معنى البيت الأول[1]:

علمتَ يامُجاشعَ بْن مَسعدَهْ
أنّ الشَّبابَ والفَراغَ والجِدَهْ
مَفسدةٌ للمرءِ أيُّ مَفسدَهْ

ومن المعنى الأول قولُ الطِّرِمّاح:

وشيَّبَني أن لا أزالُ مُناهِضاً ... بغيرِ ثَرىً أندَى به وأبوعُ
أمُحترِمي ربُّ المَنون ولم أنَلْ ... من المال ما أعصي به وأُطيعُ

[معنى أخذ البريء بالذنب]

قام بعض الشعراء إلى قُتيبة بن مسلم الباهليّ أولَ ما وافَى خراسان والياً عليها فأنشده:

شُدَّ العقابَ على البَريء وما جنَى ... حتّى يكونَ لغيرِه تنكيلا
والجهلُ في بعض الأمور وإنْ علا ... مُستخرجٌ للجاهلين عُقولا

فقال له قتيبةُ: قبَّحك الله من مُشير، لا أقمْتَ معي في بلدة، ونفَاه إلى خراسان.

آخر يهجو رجلاً من طيِّئ:

إذا لم ترَ الطَّائيَّ يبذلُ جاهَهُ ... وأموالَه دونَ الصَّديقِ لأعدائهْ
فثِقْ أنّه فيهم دعيٌّ وإنْ يكُنْ ... صحيحاً فلؤمُ الطَّبْع لا لؤم آبائهْ

لم نكتبْ هذين البيتَين مع تخلُّفهما وسخافة لفظهما إلاّ لأنّ أبا تمّام تناول معناهما فجوَّده بحِذقه وحِدّة خاطره فقال:

---

(١) من أرجوزة لأبي العتاهية.

لكلٍّ من بني حـــواءَ عُذرٌ ولا عُذرٌ لطائيٍّ لئـــيمِ

القطاميّ:

وفي الخُدور مَهـا حُورٌ مُصـوَّرةٌ خُلِقنَ أحسنَ ممّا قالَ مَن يَصِفُ
إذا ذكرنَ حديثاً قُلن أحسنَهُ وهنَّ عن كلّ سوءٍ يتّقَى صُدُفُ

لقيط بن أوفَى المِنقريّ:

وما أنا بالسّاعي إلى أمّ عاصمٍ لأضربَهـا إنّي إذاً لجَهـولُ
وما أنا بالمنفاقِ ما في خبائها ولا أنا عمّا غيّبتْهُ سَؤولُ

المرّار الفقعسيّ:

يَمشين وهْناً وبعد الوهن من خَفَرٍ ومن حَياءٍ غَضيض الطَّرْفِ مَستورِ
إذا انتَسبْنَ ذكرن الحيَّ من أسدٍ مُنزَّهات عن الفحشاء والزُّورِ
يحملن ما شئتَ من دينٍ ومن حَسَبٍ ومـا تَمنَّين من خَلْقٍ وتَصويرِ
غُرٌّ منعَّمةٌ يضحكْن عن بَرَدٍ تَمْنَ في أيّ تَبْتيلٍ وتَخْصيرِ
لا يَلْتَفِتْنَ ولا يَنطِقْنَ فاحشةً ولا يُسائِلْنَ عن تلك الأخابيرِ

[معنى اختلاف هوى المركوب والراكب]

مَرزوق بن فَرْوة المُراديّ:

تَؤُمُّ بطَرْفها نَجْداً قَلوصي وطَرفي نحو أهل الشَّام سامِ

هذا مأخوذ من قول عُروة بن حِزام:

هوَى ناقتي خَلْفي وقدّامَ الهوَى وإنّي وإيّاها لَمُختلفان
فإنْ تَحملِي شَوقي وشَوقَكِ تَظْلَعي ومالكِ بالحِمْل الثّقيل يدانِ

مثل قول جرير:

أحنُّ إلى نجدٍ وبالغَور حاجةٌ ... فغارَ الهوَى ياعبدَ قيسٍ وأنْجَدَا

ولمّا قال مُضَرِّسٌ:

وقِدْرٍ كحَيزوم النَّعامة أُحْمِشَتْ ... بأجْذال خُشْبٍ زالَ عنها قَشيبُها

سمع ذلك زياد الأعجم فقال: وما حيزوم النَّعامة؟ لعن الله هذه من قدْرٍ فما أحسبُها تُشبع عيالَ مضرّس، فقيل له: كيف تقول أنت؟ قال: أقول أنا:

وقِدْرٍ كجَوف اللَّيل أحْمَشتُ غَلْيَها ... تَرَى الفيلَ فيها طافياً لم يُفَصَّلِ

لَوَ أنّ بَني حوّاءَ حَولَ رَمادِها ... لما كان منهم واحدٌ غيرَ مُصطَلِ

[في صفة الجدب والخصب]

وسَنَى بنت عامر الأسديَّة: وهذه الأبيات مع أطبع أشعارهم وأغربَها معنىً، بل ما نعرف في صفة الجَدْب والخِصْب مثلها، وهي:

ألَمْ تَرَنا غبَّنا مَاؤنا ... زماناً فظَلْنا نَكدّ البئارا

فلمّا جَفا الماءُ أوطانَه ... وجفَّ الثِّمادُ فصارت حرارا

وضجَّتْ إلى ربّها في السَّماء ... رؤوسُ العِضاه تُناجي سِرارا

وفتَّحت الأرضُ أفواهَها ... عَجيجَ الجِمال وَرَدْن الجِفارا

فقلنا: أعيروا النَّدَى حقَّه ... وصبْر الحِفاظ ومُوتوا حِرارا

فإنّ النَّدَى لَعَسى مَرَّةً ... يردُّ إلى أهله ما استْعارا

فبيْنا نُوَطِّنُ أحشاءَنا ... أضاءَ لنا عارضٌ فاستطارا

وأقبل يَزْحَفُ زَحْفَ الكسيـ ... ـرِ سَوقَ الرِّعاءِ البِطاءَ العِشارا

تُغنّي وتضحكُ حافاتُهُ ... خلالَ الغَمام وتَبكي مِرارا

كأنّا تُضيء لنا حُرّةٌ ... تشُدُّ إزاراً وتُلقي إزارا

فلمّا خشينا بأنْ لا نجاءَ ... وأنْ لا يكونُ قَرارا

أشارَ لَه آمرٌ فَوقَهُ ... هلُمَّ فأمَّ إلى ما أشارا

مثله قول سُحَيم:

أصاحِ تَرى البرقَ لم يغتَمِضْ ... يَضيء كفافاً ويَخْبو كفافا

مثله قول ابن الخطيم:

أضاءتْ لنا كالشّمس تحت غَمامةٍ ... بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ

مثله بشّار:

قامتْ تصدَّى إذْ رأتْني وَحْدِي
كالشَّمس بين الزِّبرِج المُنْقَدّ
ضنّتْ بخدٍّ وجلَتْ عن خدّ

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنَى قول مَعْن بن أوس يصف نَخلاً:

كأنّما هيْ عانسٌ تصدَّى
تَخشَى الكسادَ وتُحبّ النَّفَدا
فَهْيَ تَردَّى بعد بُردٍ بُرْدَا

أبو محصنة الربعيّ:

أيا ظبيةَ الوعساء أنت شبيهةٌ ... لذَلفاءَ إلاّ أنّ ذلفاءَ أجدَلُ

فعَيناكِ عَيناها وجِيدُكِ جِيدُها ... وشَكلكِ إلاّ أنها لا تَعطّلُ

حسبناكِ إيّاها لأوّلِ نَظْرةٍ ... فلمّا تبيَّنّا إذا هي أجمَلُ

فـــلا تنفِري منّا فلستُ بتـــاركٍ شـبـيـهـةَ ذلفـاءَ الحَبـيـبـةِ تُقـتَلُ

ومثله قول العامريّ:

فـعيناكِ عـيناها وجِيـدك جِيـدُها ولكنّ عظمَ السّاق منكِ دقـــيقُ

وبيت المجنون أملح معنىً وأصلح لفظاً وأوقَع في التشبّيه من البيت.

وأما قوله «فلا تنفري» البيت فمثل قول الآخر[1]:

راحـوا يَصـيـدون الظّبـاء وإنّني لأرَى تصـــيُّدَها عليَّ حَرامـــا

أعـزِزْ عليّ بأن أروعَ شـبـيَهـهـا أو أن يَدُقّنَ علَى يديَّ حِمـــامـــا

مالك بن الرَّيْب:

يقـول المُشـفِقـون عليَّ حـتّى مـتى تَلقَى الجنودَ بغـيـر جُنْدِ

ومـا مَن كـان ذا سـيف ورُمْحٍ وطاب بنفـــســـه مَوتاً، بفَرْدِ

[معنى الحصر عن الحبيب مع قرب الدار]

أمّ محكم الضبّيّة:

كفَى للفتَى من عِيْشة السَّوْءِ أن يَرَى حبيـبـاً ومن دون الحبيب رقيبُ

وإنّي لَيدعوني الهوَى نحو غيره فـأَبَى ويدعـو نحـوَهُ فـأُجـيبُ

إلى البيت الأوّل نظر أبو تمّام بقوله:

وحسبُك حسرةً لك من حبيبٍ رأيتَ زِمـــامَهَ بيـــدَيْ عـــدُوٍّ

(١) هو قيس بن الملوّح مجنون بني عامر.

[معنى مذمة النساء]

عاصم بن خِرْوعة النهشليّ يَذُمّ امرأته :

إلى الله أشكو أنّهـا قـد تنكّرَتْ ... وأبْدَتْ لِيَ البغضاءَ أمُّ محمّدِ

تُوقِّدُني منهـا بقـولٍ كأنّهُ ... على القلب سفعُ النّار أو حرّ مِبْرَدِ

فقـد تركتْني عندها كمُدْلَهٍ ... يُحاذِرُ وَقعاً من لسانٍ ومن يدِ

كأنّ عذابَ القبر تحت خبائها ... إذا لَصِقتْ تحت الخباء المُمَدَّدِ

فيـاربّ فَرِّجْ كُرْبتي قبل مِيْتَتي ... بواضحة الخدّين ريّا المُقَلَّدِ

وإنّي متى عاتَبتُها كان عُذْرُها ... وإعتابُها : إنْ كنتَ غَضبانَ فازْدَدِ

هي الغُول والشّيطانُ لا غولَ غيرُها ... ومَن يَصحَبِ الشّيطانَ والغُولَ يَكْمَدِ

تَعَوَّدَ منهـا الجنُّ حين يَرَونهـا ... ويُطرِقُ منهـا كلُّ أفعَى وأسْوَدِ

فإنّي لَشاكيهـا إلى كلّ مُسلمٍ ... وداعٍ عليهـا اللهَ في كلّ مَسجدِ

نظائر مَن بَرِمَ بامرأته فتمنّى أو هدَّدَها بالطّلاق أو روّعها بالضرّة كثيرٌ متّسعٌ، ولو أردنا استغراقه لكان كتاباً مفرداً، ولكنّا نُوردُ منه ما يُختارُ، ونَتجنّبُ ما كان كثيراً مشهوراً وإنْ كان مختاراً، فمن ذلك قول عُمَيس بن كثير البَكّائي :

مُنِيت بداءٍ أو رُمِيت بضرّةٍ ... أبِيتُ أُنادِيهـا نداءَ مَشُوقِ

أغصّتْني بالرِّيق من غير فاقةٍ ... أغصّكِ ربُّ العالَمين بريقِ

ومرضتْ امرأةُ بعض الأعراب وكان لها مُبغضاً فسمعها وهي تقول «الموت» فقال :

إذا متِّ فالجَرعاءُ منك قريبةٌ ... ولِي في قَصِيِّ الغانيات مَعادُ

قال : وكانت امرأة أُنيف بن قترة الكلبيّ سيّئة الخُلق وكانت لا تزال

تُشارُّه، فقال: لو أتيتُ بها دمشق فإنّها أرضٌ وَبِئةٌ فلعلّها تموتُ، فقدم بها دمشق وقال:

دمشقُ خُذيها واعلَمي أنّ ليلةً ... تَمُرُّ بعُودَي نعشها ليلةُ القَدْرِ
شربتُ دماً إنْ لم أرُعْكِ بحُرَّةٍ ... بعيدةِ مَهوَى القُرط طيّبةِ النَّشْرِ
يُجرِّعُكِ السّمَّ الذُّعافَ لِقاؤها ... فتُغضين من غيظ علَى لهب الْجَمْرِ
تقول لكِ الجاراتُ صبراً وإنّما ... يُجرّعُكِ الجاراتُ كأساً من الصَّبْرِ

وقريبٌ منه قول جِران العَود أو غيره:

مَن كان أصبح مسروراً بزوجته ... من الأنام فإنّي غيرُ مَسرورِ
كأنَّ في البيت بعد الهَدْءِ راصدةً ... غُولاً تَصوَّرُ لي في كلّ تصويرِ
شوهاءُ زَرقاءُ مسنونٌ أظافرُها ... لم تُلْفَ إلاّ بشَعرٍ غير مَضفورِ
مَشْؤمَةَ الوَجْه نحسٌ ما تُفارقُهُ ... كأنّها دِبقةٌ في ريش عُصفورِ
كأنّني حين ألقَى وجهَها بُكَراً ... هوى إلى اللّيل يومي ذاك في بِيرِ

مثله لآخر:

وما تستطيع الكُحلَ من ضيق عينها ... فإنْ عالَجتْهُ صارَ فوقَ المحاجرِ
وفي حاجبَيها جزَّةٌ لغِرارةٍ ... فإنْ حُلِقا كانا ثلاث غَرائرِ
وثَديان أمَّا واحدٌ فكموزةٍ ... وآخرُ فيه قِربةٌ لمُسافرِ

[معنى منع العطاء وبسط الوجه]

مسعود بن عرفجة اللّيثي:

وأبيضَ زَوْلٍ بين أثناءِ قَولِه ... بِعادٌ وتقريبٌ ويأسٌ ومَطمَعُ
إذا أمَّهُ الرَّاجي انثنى عن فِنائه ... وفُوهُ من التقريظ ملآنُ مُتْرَعُ

بلا جِدةٍ نالتْ يَدَا مُستَميحِه ... سوَى أنّه هَشٌّ وإن كان يَمْتَعُ

هذا معنى ظريف غريب يقول: إنّه وإنْ كان بخيلا فهو طَلْق الوجه حَسَن البِشْر فقاصدُه يَنصرف شاكرا له وإن لم ينَلْ منه شيئاً سوَى طلاقة وجهه، وما أشبهَه بقول الآخر:

أتيتُ ابْنَ وَهْبٍ أبتغي فضلَ عُرفِه ... وما زالَ حُلْوَ المنعِ حُلْوَ المذاهبِ
فأصفَحَني عن حاجتي بطلاقةٍ ... سَلَوتُ بها عن مُنْفِساتِ الرّغائبِ

مثله لأبي هفّان:

أوسعتُ عُمراً ثنائي حين أوسعَني ... برَّ اللّسانِ ووَشْكَ الصَّرفِ إذْ صَرَفا
حسبتُ باقيَ زادي من مَواهبِه ... وقُمتُ أُعقِدُ حبلَ الرَّحْلِ منصرِفا
فأبْتُ منه إلى أهْلي وبي رَمَقٌ ... لا مَطلَ عانَيتُ منه لا ولا خُلُفا

ما نعرف من نظائر هذا المعنى غير ما ذكَرنا ههنا:

المجنون:

قالت لجارتها يوماً تُسائلُها ... لَمَّا استَحَمَّتْ وألقتْ عندها السَّلَبا
نشدْتُكِ اللهَ لَمَّا قُلْتِ صادقةً ... أصادقٌ صِفةُ المجنون أم كذَبا

[معنى التساؤل عن صدق صفة العاشق]

وإلى هذا المعنى نظرَ عُمَر بن أبي ربيعة بقوله:

ولَقد قالتْ لأترابٍ لها ... وتَعرَّتْ ذاتَ يومٍ تَبترِدْ
أكما ينعتُني تَنظُرُنَني ... عَمْرَكنّ اللهَ أمْ لا يَقتَصِدْ
فتَضاحَكْن وقد قُلْن لها ... حسَنٌ في كلّ عَين مَن تَوَدّ
حَسَداً حُمِّلْنَهُ مِن أجلِها ... وقديماً كان في النّاسِ الحَسَدْ

أمَّا قوله «فتضاحكن . .» البيت فهو مثل قول الآخر[1]:

فـعين الرِّضـا عن كلِّ عَيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخط تُبدِي المَسـاويا

إلاَّ أنَّ هذا جَمعَ مَعْنَيَيْنِ وهما الرِّضا والسّخط.

قد اخترنا في هذا الكتاب من أشعار العرب وبديع معانيهم وطريف استعاراتهم وتشبيهاتهم ما وقع في جملة من الورق كثيرة، وضمّنّه عدة أجزاء، ولو أردنا أضعافَ ذلك لَمَا تعذَّر علينا ولكنَّا نقوم به إلاَّ أنّا ملْنا إلى الاختصار وتجنَّبْنا الإكثار، وفيما ذكرْنا من ذلك مَقنَع وبلاغ ودلالَة علَى فضل المتقدّمين. وجميع ما أثْبتناه فاختيار من أشعارهم المشهورة والمجهولة وما لنا إلاَّ الجَمعُ والتّأليف، ولعلَّ غيرنا ممَّن يقرأ هذا الكتاب يُرْذلُ شيئاً ممَّا اخترناه ويُهجِّنُ شيئاً نَقلْناه، وهذا غير مُزرٍ بنا ولا ناقصٍ لنا، لأنَّ لكلِّ إنسان اختياراً، ولعلَّ آخر ممَّن يتصفَّحه يعرف النَّظير لشيء ممَّا ذكرناه وهو لا يعرف غيره فيُشنِّع علينا ويقولُ: تركوا نظائر، ولم نَشرطْ أنّا نأتي بجميع النَّظائر ولعلّنا أعرفُ بما خرّجَه الزَّاري علينا منه إلاَّ أنّا تركناه لمعنىً، ويجوز أنْ لا نَعرفُه لأنّا لم نُحطْ بجميع العلم، والشعر أكثر ممَّا يُحصَى، والغرض الّذي ذكرْناه وأردْناه من التَّنبيه علَى محاسنهم فقد بلَغْناه والآن نبدأ بعون الله وحُسن توفيقه في اختيار أشعار المحدَثين وغريب معانيهم وحُسن استعاراتهم بعد هذا الكتاب ليشتمل الكتابان على الفنَّيْن من الشِّعر القديم والمحدَث، ونرجو أنْ يقعَ هذا الكتاب الآخر موقعَ الكتاب الأوَّل من قلب مَن صنَّفناه من أجله -أيَّده الله- إنْ شاء الله تعالَى، والحمد لله، وصلَّى الله على محمد نبيِّه الكريم، وعلَى آله وسلم تسليماً وحسبنا الله ونعم الوكيل.

* * *

(١) هو عبد الله بن معاوية بن جعفر.

الفهرس

	الصفحة
المقدمـــة	٥
المـؤلفـــان	٧
الأشبـــاه والنظائـــر	١١
النصـــوص المختـــارة	١٣
معنى قتال الأقارب بكره القلوب	١٧
معنى عرف الحبيب بالديار	١٨
التوارد وهو عندنا سرقة لا محالة	٢٢
من شعر القتّال الكلابي	٢٣
الحذق في الشعر، وأخذ معانيه	٢٤
معنى الهجاء	٢٥
معنى «كفى بالسلامة داء»	٢٧
من شعر جران العود النميري	٢٩
معنى مشي المرأة	٣١
معنى حديث النساء	٣١
من شعر مسكين الدرامي	٣٣
معنى قلة الغيرة	٣٤
مضاحكة الضيف ومحادثته	٣٥
في هجو النساء	٤١

الصفحة

ذم من قصر عن آبائه	٤١
معنى مشي المرأة	٤٣
معنى الهجاء: الاستهانة بغضب المهجو	٤٣
معنى الهجاء بقصر النفس على المأكل والملبس	٤٤
وصف الثغور	٤٩
معنى فضل النعمة على الشكر، وعكسه	٥١
مشي النساء والرجال	٥٥
معنى التزوج في غير الأقارب	٥٩
معنى الجود	٦٠
الديباج الخسرواني لسحيم عبد بني الحسحاس	٦٠
معنى مشي النساء	٦٤
معنى وصف العناق	٦٤
معنى سؤال قريبي العهد بالغنى	٦٥
معنى الأيمان الكاذبة	٦٧
معنى صفة الفم بالظن والتفرس	٦٨
معنى وشاية الطيب والحلي	٧٢
معنى أماني المحب للتفرد بالحبيب مع البلاء	٧٤
معنى ذكر الحبيب في الصلاة	٧٦
معنى «كادت دمنة الدار تنطق»	٧٧
معنى حسر الدموع وإجمامها	٧٧
معنى لا إصلاح بعد الأربعين	٨١

الصفحة

معنى هجاء الضيوف	٨٢
أطبع قصيدة للعرب	٨٢
معنى الاستعانة في البكاء بالغير	٨٦
نوع خاص من الهجاء	٨٦
معنى الاستعانة في البكاء بالغير	٨٨
معنى صفة الفم	٨٩
في صفة الخباء	٨٩
معنى الحنين إلى البدو	٩٣
معنى «إن لم يغز ينتظر»	٩٤
من غرائب الحمق مدح الكميت للنبي	٩٤
معنى أخذ البريء بالذنب	٩٦
معنى اختلاف هوى المركوب والراكب	٩٧
في صفة الجدب والخصب	٩٨
معنى الحصر عن الحبيب مع قرب الدار	١٠٠
معنى مذمة النساء	١٠١
معنى منع العطاء وبسط الوجه	١٠٢
معنى التساؤل عن صدق صفة العاشق	١٠٣